كتاب

أسرار الصيام

للخواص والعوام

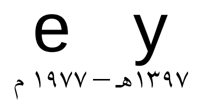
في الكلام على قول الله تعالى

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾

تأليف فضيلة الأستاذ سيدى

صالح بن محمد بن صالح الجعفرى

الصادقى الحسينى المالكى من حملة الشهادة الأهلية والعالمية
القديمتين من الأزهر الشريف والشهادة العالية
والشهادة العالمية مع إجازة تخصص
التدريس من كلية الشريعة الأزهرية
وإمام ومدرس بالجامع الأزهر الشريف



١٣٩٧هـ - ١٩٧٧ م



﴿تقديم﴾

الحمد لله رب العالمين : شرع لعباده من الدين ما يهذب نفوسهم ، ويطهر قلوبهم ويسعدهم فى دنياهم وأخراهم ، وصلى الله تبارك وتعالى على سيدنا ومولانا محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، فى كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله .

أما بعد :

فإن الصيام فريضة جامعة ، وعبادة كاملة ، بها تعرف حلاوة الإيمان ، ويرتقى إلى مقام الإحسان ، فهو عبادة قلب وروح ووجدان وضمير وشعور ومراقبة ومشاهدة ، فالهدف من فريضة الصيام : أن يتذوق الصائم حياة الأبرار الأطهار ، الأصفياء المقربين ، حيث لا رفث ولا فسوق ولا جدال ، ولا معصية حسية أو معنوية ، باطنة أو ظاهرة ، من خائنة الأعين ، أو مما تضم الجوارح والصدور .

فالصيام من أهم العبادات وأعظم القربات إلى الله ، يقول فيه الرسول — عليه أزكى الصلاة والسلام — فى الحديث القدسى الذى يرويه عن ربه : « **كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به** » .

ومدار الأمر كله عند أهل الطريق إلى الله تعالى فى السيطرة على النفس وترويضها على المكاره وكبح جماحها عن الشهوات ، وتذليلها للخالق ، وإفناء ذاتها فى محبته والقرب منه ، والصوم هو السبيل القويم إلى تحقيق هذه الغايات السامية ، فالصوم عندهم يتجاوز الإمساك عن شهوتى البطن والفرج إلى إمساك الجوارح كلها عن المحرمات ، ثم يرتقون به إلى درجة أعظم ، يقول عنها *الإمام الغزالى* : « صوم القلب عن الدنية ، وعن النوازع الدنيوية ، والكف عما سوى الله تعالى بالكلية » .

فإذا كان الصيام – فرضا ونفلا – لعامة المسلمين دواء شافيا للأرواح والأجساد فإنه لخاصتهم سبيل القرب ودليل الحب ، فإن أهل الطريق هم أكثر الناس انتفاعا بخيرات الصيام ، وأعرفهم بأسراره وأنواره ، فهو من أقصر السبل إلى مجاهدة النفس وتخليصها من أقفاصها ، وفكها من أغلال شهوتها ، وأقوى معين على طرد وساوس الخناس فإن اللعين يجرى من ابن آدم مجرى الدم من العروق ، والصيام يضيق مجاريه ، ويضعف كيده ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[(١)] .

لهذا أراد مولانا وشيخنا العارف بالله تعالى *الإمام الجعفرى* أن ينبه السالكين فى طريق الله تعالى إلى أهمية الصيام وأثره فى تربية النفس وتخليصها من عيوبها وترقيتها إلى أعلى الدرجات ، فهو ينمى فى نفس المريد فضيلة الصبر عن مشتهيات النفس ، ويربى فى قلبه مخافة الله تعالى ومراقبته ومحاسبة نفسه ، وثمرة ذلك كله : تقوى الله تعالى وهى خير زاد إلى يوم المعاد ، فالصوم نصف الصبر الذى هو نصف الإيمان ، وبه استحق الصائم أن يختص بدخول الجنة من باب معلوم يقال له : الريان ، ومن أجل ما فى الصيام من فوائد ، وما حواه من أسرار وفرائد ، سطر *الإمام الجعفرى* رضي الله عنه هذه الرسالة وأشار فيها إلى ما فى هذه الفريضة من لطائف ومعارف ، واستنبط منها حكما وأسرارا وأنوارا ، واستخرج من أزاهير روضها نفحات وأعطارا .

وقد بنى *الإمام الجعفرى* قواعد هذه الرسالة على الأحكام المستنبطة ، والقواعد المستخلصة من آية فرض الصيام ، وهى قول الحق – تبارك وتعالى – ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[(٢)] . ومولانا *الإمام الجعفرى* – رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا بعلومه آمين – لم يقصد بهذه الرسالة استيفاء الكلام على الصيام من جوانبه كافة ، أو استقصاء أحكامه وتفصيلها ، فقد تكفلت بذلك دروسه العامرة التى عمرت بأحكام الصيام وفقهه كاملا ، مفصلا ، ميسرا ، ولكنه قصد بهذه الرسالة إلى تنبيه السالكين فى

(١) سورة النساء – الآية (٧٦).
(٢) سورة البقرة – الآية (١٨٣).

طريق الله تعالى إلى أهمية الصيام ، وإرشادهم إلى الانتفاع بما فى هذه العبادة الكاملة والقربة العظيمة ، من أسرار وأنوار وفضائل تجل عن الحصر .

وقد طبعت هذه الرسالة فى حياة الشيخ ﷺ وسارع المحبون والراغبون فى الاستزادة من فيض العلم الربانى إلى اقتنائها ، فنفدت الطبعة الأولى ، وتعميما للفائدة وتلبية لحاجة أبناء الطريق ، السالكين سبيل التحقيق إلى الانتفاع بما فيها من فيوضات علم صاحبها ونفحاته ، نقدم هذه الطبعة الجديدة راجين من الله تعالى أن يعم نفعها ، وأن يتصل مددها ، والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

عبد ربه الغنى

سيدى عبد الغنى صالح الجعفرى

شيخ عموم الطريقة الجعفرية



﴿المقدمة﴾

وصلى الله على سيدنا محمد الحافظ بنور جلاله صحيح مقاله وعلى آله وسلم .

لا إله إلا الله محمد رسول الله فى كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله . قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[1] .

يقول العبد الفقير إلى رحمة ربه : أتكلم على هذه الآية الشريفة بما يفتح الله به على .

اشتملت هذه الآية الشريفة على سبعة مباحث :

﴿الأول﴾ نداء الله تعالى لعبيده المشعر بزيادة اعتنائه بهم وتكريمه لهم .

﴿الثانى﴾ وصفهم بالإيمان الذى هو أعظم نعمة تستلزم امتثال الأمر الآتى .

﴿الثالث﴾ وصفهم بالعبودية التى يتضمنها الإيمان ؛ لأن المؤمن هو الذى يعتقد بقلبه أن الله تعالى إلهه وخالقه وأنه هو عبد الله لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

﴿الرابع﴾ ذكر الفرض الواجب .

﴿الخامس﴾ ذكر الصيام .

﴿السادس﴾ ذكر تعلق الصوم بالذين من قبلنا .

﴿السابع﴾ ذكر التقوى .

---

(١) سورة البقرة – الآية (١٨٣).

﴿الأول : من المباحث السبعة للآية الكريمة﴾
﴿نداء الله تعالى لعبيده﴾

فالنداء يتضمن سبعة أشياء :

﴿الأول﴾ علم المخاطب بحال مخاطبه .

﴿الثانى﴾ طلب الإقبال من المخاطب .

﴿الثالث﴾ طلب إصغائه .

﴿الرابع﴾ طلب إمتثاله .

﴿الخامس﴾ طلب الأدب من المخاطب لعلمه بمخاطبه .

﴿السادس﴾ طلب العلم من المخاطب بمخاطبه .

﴿السابع ﴾ تطهير باطنه وظاهره .

﴿الأول﴾ علم المخاطب بحال مخاطبه :

فهو عبارة عن أن يعتقد الإنسان المخاطب أن الله تعالى عليم به إذ خلقه من العدم خبير بمصلحته حيث ركبه من أجزاء مختلفة ، وجعل له أمعاء باطنة وأشباحا ظاهرة ، وجعل الظاهر يمتد قواه من الباطن ، فلذلك إذا أمره بأمر أو نهاه عن شىء فليعلم أن ذلك لحكمة تدرك للعقل السليم وإن لم يظهرها الشرع ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[1] ، ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا ﴾[2] ، فبعد أن تبين لك أنه يعلم جميع خلقه وما هم عليه وما يليق بهم وأنه لم يخلق شيئا عبثا بل كل مخلوقاته لحكمة ، وكل أفعاله لحكمة ، وكل أوامره ونواهيه لحكمة ، وقد أمرنا الله

(١) سورة الملك – الآية (١٤).
(٢) سورة المؤمنون – الآية (١١٥).

تعالى بالصوم وبين لنا حكمته بقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1] ، وقد أدركت أيضا حكمة الصوم جميع العلماء والأطباء وغيرهم .

فى الصوم فوائد للروح والجسد

فعلماء الفقه أدركوا أن الصوم يدعوا إلى العطف على الفقراء والمساكين وذلك العطف يدعو إلى القيام بواجب شرعى وركن من أركان الإسلام وهو الزكاة قال تعالى : ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[2] . وإلى ردع النفس عن الشهوات والفواحش ما ظهر منها وما بطن قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[3] . وإلى التعاون وبذل المعروف قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾[4] . وإلى النشاط فى الأعمال الصالحة والمسارعة إليها والجد فى تحصيلها فقد ذم الله تعالى المنافقين لكسلهم بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾[5] وغير ذلك مما يتعلق بعلم الفقه .

وعلماء التصوف أدركوا أن فى الصوم أعظم وسيلة لتصفية الروح وترقيتها وإطلاقها من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح وبه تذكر ما كانت عليه فى الزمان الأول من مجد وعز وعلم ورزق واطمئنان ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ

(١) سورة البقرة – الآية (١٨٣).
(٢) سورة البقرة – الآية (١١٠).
(٣) سورة الأعراف – الآية (٣٣).
(٤) سورة المائدة – الآية (٢).
(٥) سورة النساء – الآية (١٤٢).

ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[1] .

سمعت من شيخى الأستاذ الشيخ ﴿*محمد بخيت المطيعى*﴾ عليه الرحمة والرضوان يقول فى تفسير هذه الآية : « قيل إنها [2] هى الروح » انتهى .

وقد ذكروا أن الأبدال يتصفون بأربعة أشياء : الجوع . والصمت . والسهر . والاعتزال . فالصمت يتسبب من الجوع وكذلك السهر وبقى الاعتزال ثمرتها ، لأنه ينشأ عن أنوار الذكر الجالبة للأنس بالله والوحشة عن سواه كما قال *ابن الفارض* رضي الله عنه : « ... واستأنست بالوحش إذ كانت من الإنس وحشتى » .

فكان الجوع لهذه الثلاثة أصلا وهو حاصل بالصوم .

وأيضا ذكروا أن دواء القلب عند قسوته خمسة أشياء :

﴿الأول﴾ إخلاء البطن .

﴿الثانى﴾ قراءة القرآن .

﴿الثالث﴾ القيام فى الأسحار بالتضرع والبكاء .

﴿الرابع﴾ التهجد بالليل .

﴿الخامس﴾ مصاحبة أهل الخير والصلاح .

فالأربعة التى بعد إخلاء البطن لا تتم إلا به فهو أيضا أصل لها وإخلاء البطن حاصل بالصوم فمنزلة الأبدال وجلاء قسوة القلب يدركان بخلاء البطن وهو حاصل

(١) سورة النحل – الآية (١١٢).
(٢) أى القرية المذكورة فى الآية .

بالصوم كما علم فما أعظم فوائد هذا الصوم . وما أكثر بركاته على النوع الإنسانى ففيه ﴿ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾[1] .

وعلماء الطب قالوا إنه لابد للمعدة من أن تستريح مدة وقد حققوا أن أقل هذه المدة هى شهر من كل سنة ومن زاد على الشهر كان ذلك من قبيل زيادة الخير . ومن لم يصم تأتى عليه أزمنة تضطره إلى ترك الأكل والشرب حتى تأخذ المعدة واجبها .

فى الصوم تيسير على الأمة

وقد جاء الشرع الحكيم بما يوافق الطبيعة الإنسانية والتمشى مع أحوالها الكونية ففرض الله على هذا النوع الإنسانى صوم شهر من كل سنة ولولا ذلك لما تم نظام التشريع الإسلامى الذى جاء بكل ما يلائم الحياتين الدنيوية والأخروية وبما يتمشى مع كل زمان ومع أهل كل قطر على وفق مرادهم ، يفقه ذلك من أحاط بالفقه الإسلامى وما فيه من اختلاف آراء الأئمة توسعة ورحمة بالأمة .

وقد فرض الله الصوم على بنى الإنسان دون الملائكة والحيوان الأعجمى لحاجة بنى الإنسان إليه ، فالملائكة الكرام معلوم أمرهم من أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا أمعاء لهم ، والحيوانات الأعجمية خلق الله لها أمعاء قوية حتى إن بعض الطيور الضعيفة يبلع الحصا الصلب فيذيبه فهى لا تحتاج إلى راحة أمعائها لقوتها ، فالصائم حين صومه يكون شبيها بالملائكة الكرام ومفطر رمضان يكون أحط درجة من الحيوان الأعجمى لأنه يتشبه به « والمشبه لا يقوى قوى المشبه به » .

فيا تاركا لصوم رمضان لا أراك تركت صومه إلا لجهلك المركب لا البسيط ؛ لأن نفسك الجموحة اعتقدت أن فى الإفطار منفعة والأمر على عكس ذلك ، كيف

---

(١) سورة المطففين – الآية (٢٦).

تعتقد المضرة منفعة وقد بينها لك دينك وعلمها أبناء غير دينك فشهدوا لدينك بالحكمة ؟! ولولا العناد لأسلموا لأن العالم ينقاد لنور علمه كما أن السارى ليلا يستضىء بنور مصباحه ، فعلماء الطب من الأجانب قد وجدوا أن الدين الإسلامى جاء بكل ما يلائم الجسم وما تركب منه وما يصلح لتغذيته ، فهم الآن قد تمشوا مع الإسلام واعترفوا بصدقه وبحكمته من هذه الوجهة ، فلو دققوا فيما بقى تدقيقهم فيما اعترفوا به لوجدوا اللاحق كالسابق من أحقية ما جاء به الإسلام فهم الآن يقولون بما قال به الإسلام فى هذه الوجهة وإن لم يسلموا انقيادا لنور علمهم وتسليما للواقع ، لأن عدم الانقياد لنور العلم عمى وإنكار الواقع جنون ، ولا أدرى لما لم يسلموا ويكونوا دعاة لهذا الدين الذى جاء مؤيدا لعلمهم وموافقا لهم ومسددا لآرائهم فهو أعظم جند لهم !.

فيا أيها الذين جحدوا فضل الإسلام تعالوا بنا نتحاكم لدى علماء الطب والجغرافية والطبيعة والهندسة والحساب فإن الجميع يعترفون بأن ذلك فى القرآن والسنة وأن ما عندهم نقطة من بحرهما الزاخر كما سأبين لك بمشيئته تعالى .

فطب القرآن والسنة كثير ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ ﴾[1] ، وقوله ﷺ : « **وكلوا فى أنصاف بطونكم** » ، وغير ذلك مما جاء فى النهى عن ملء البطن وعن إدخال الطعام على الطعام وعن أكل الطعام الحار .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾[2] ، فإن جميع الأطباء اليوم تنهى عن الزنا وتقرر أن أكثر الأمراض المتلفة للإنسان كالزهرى والسيلان ومرض العينين وضعف القوى البدنية وإتلاف الزوجات والذرية بالعدوى ناشئة عن الزنا ، وما أبلغ القرآن

(١) سورة الأعراف – الآية (٣١).
(٢) سورة الإسراء – الآية (٣٢).

حيث عبارته تقول : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ﴾[1] ، ولم يقل ولا تزنوا ؛ لأن النهى عن قربان الشىء أبلغ من النهى عنه وما ذاك إلا لعلم الله تعالى بمضار الزنا التى لم يدرك الأطباء إلا بعضها وقوله ﷺ : « **لا يزنى الزانى حتى يزنى وهو مؤمن** »[2] ؛ لأن فعله هذا ينافى نور الإيمان إذ بنور الإيمان أدرك مضار الزنا وشاهدها أمامه وسمع الأطباء بعد ذلك تنهاه وأرته مضاره فى المتحف الصحى وفى غيره من المرضى ، فوقوعه بعد ذلك فى الزنا دليل على أن على نور إيمانه غشاوة وعلى سلطان عقله عقال ، وقد جاء الإسلام بالكمال فكل من جاء من أهله بالنقص فهو ليس منهم أى ليس عاملا بمثل عملهم من الكمال الذى جاء به نبينا ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[3] ، أيها المؤمن تفكر معى فى قوله تعالى : ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[4] ، بالله عليك كيف تعتقد فى خالقك أغاش لك أم ناصح حكيم ؟ أعاجز عنك أم قادر عليك ؟ أمخلف لوعده أم منجز له ؟ فإذا كنت تعتقد أنه ناصح حكيم فقد نهاك عن شرب الخمر وعن لعب القمار فلم لا تنتهى ؟ وإذا كنت تعتقد أن الله قادر عليك فلم لا تخشى انتقامه ؟ وإذا كنت تعتقد بوفاء وعده فلم لا تترك خمر الدنيا رجاء أن تشرب من خمر لذة للشاربين وعدك بها الذى لا يخلف الميعاد ، فمضرة الخمر مشهودة معلومة طبا وعقلا من أعظمها أن الطبيب يأمرك فى جميع أحوالك بالنظام الذى به تكون على وفق القوانين الطبية ولا

(١) سورة الإسراء – الآية (٣٢).
(٢) رواه ابن ماجه .
(٣) سورة المائدة – الآية (٩٠).
(٤) سورة المائدة – الآية (٩٠).

شك أن السكر مناف لذلك ؛ لأنه يتلف مناط الإدراك ، ورحم الله ***ابن الوردى*** حيث قال :

واهجر الخمرة إن كنت فتى | كيف يسعى فى جنون من عقل

وقلت فى لاميتى المسماة (لآمية الإرشاد إلى طرق الإسعاد) :

تشرب الخمرة من بعد الذى | جاء من نهى عن المولى الأجل

بعت عقلا كاملا فى سكرة | إن عقل المرء ميزان العمل

والقمار يؤدى إلى طول الجلوس والحزن والبؤس والتباغض وكل ذلك ينافى الطب أيضا .

وعلماء الهندسة يشهد لهم قوله تعالى : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[1] ، إذ الإتقان من لوازم التقدير الهندسى وفيها إشارة إلى العبد إذا صنع صنعة فليتقنها ، كما قالوا عند قوله تعالى : ﴿ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[2] ، يعلم الله عباده التأنى فى الأمور ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾[3] ، أى اجعل حلقات الدرع متناسبة منسقة ، وقوله تعالى : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[4] ، أى العين اليمنى كاليسرى واليد اليمنى كاليسرى لم تخالف إحداهما الأخرى ، وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[5] ، وقوله تعالى : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾[6] ، إلى غير ذلك من الآيات .

---

(١) سورة النمل – الآية (٨٨).
(٢) سورة يونس – الآية (٣).
(٣) سورة سبأ – الآية (١١).
(٤) سورة الملك – الآية (٣).
(٥) سورة التين – الآية (٤).
(٦) سورة النازعات – الآية (٢٨).

وعلماء الحساب يشهد لهم قوله تعالى : ﴿ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾[1] ، ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[2] .

وعلماء الفلك يشهد لهم قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾[3] ، ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾[4] ، فقد علمت أن جميع العلوم فى القرآن وأن أربابها يعترفون بذلك وقد رأوا مطابقة إخباره للواقع ، فلا إنكار بعد المطابقة إلا تعنتا أو جحودا .

﴿الثانى﴾ طلب الإقبال من المخاطب :

إذ لا يتأتى سماع الخطاب سماع قبول وتمعن مع الإعراض قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[5] . وقد ألهمنى الله تعالى شيئا من أسرار هذه الآية بالأزهر الشريف بعد مغرب آخر جمعة فى رجب أسأله تعالى أن يكون صوابا مقبولا وهو :

« أى إذا سمعتم القرآن من غيركم أو قرأتموه أنتم على أنفسكم فاستمعوا له بآذانكم من غير أن تسمعوا لشيء آخر معه ، وتفكروا فى معناه بقلوبكم من غير أن تتفكروا فى شيء آخر مما يرد من الخواطر القلبية رجاء أن تلهموا من الله الرغبة فى العمل بما سمعتم فتوفقون إليه فترحمون » ، وهذه الرحمة زيادة على ثواب تلاوة القرآن وسماعه والأدب فى مجلسه وتدبر آيه ، فإذا سمع المؤمن قول الله تعالى :

(١) سورة يونس – الآية (٥).
(٢) سورة البقرة – الآية (٣١).
(٣) سورة البروج – الآية (١).
(٤) سورة يس – الآية (٣٨).
(٥) سورة الأعراف – الآية (٢٠٤).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾[1] ، وكان ذا أذن صاغية وقلب منصت فلا شك فى أن يحس قلبه بنور القرآن ، فيتصل نور القرآن بنور الإيمان فيضيئان فيرى المؤمن بنور إيمانه أن مخالفته لنور قرآنه عيب كبير ودليل على عدم الإيمان أو نقصه فلذلك يود أن لو يحرق بنار حامية كأصحاب الأخدود ولا يفطر يوما واحدا من غير عذر .

إذا سمع هذه الآية المؤمن المستعد ؛ إذ الإمداد على قدر الاستعداد ، وجد لها حلاوة تلتقى بحلاوة إيمانه فينسى بهما الطعام والشراب . ولقد شاهدنا كثيرا من المؤمنين يتلذذون بالصوم ولو أفطر أحدهم لعذر لا يجد حلاوة لطعام ولا شراب حتى شوهد ذلك فى النساء الحائضات فإذا كانوا مع وجود العذر لا يجدون حلاوة ولا هناء ، فما بالك بهم عند عدمه ! ؛ إذ كل من سمع الآية بأذن واعية وقلب شهيد جدير بأن يدرك أن لها روحا تتصل بروح إيمانه مع روح حياته ، فروح الحياة تتغلب على النفس الأمارة ، وروح الإيمان تتغلب على الشيطان ، وروح القرآن تتغلب على الهوى ، فعند ذلك يصوم المؤمن صوم الأبرار ، ويكون فى جنة ووقاية منيعة ودرع حصينة فيصل إلى شجرة زيتونة صومه ، فيجنى ثمارها اليانعة ويقتبس من أنوار هداها هداية للخير وتهذيبا للنفس وشفقة على الفقير وغفرانا ورحمة ورضوانا ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[2] .

(١) سورة البقرة – الآية (١٨٣).
(٢) سورة ق – الآية (٣٧).

﴿الثالث﴾ **طلب إصغائه :**

وهو عبارة عن قطع الخواطر الشيطانية التى تعطل سمع القلب وبصره عن إدراك أسرار المعانى التى بها يحصل الامتثال ، والتى بها يدرك الإنسان حكم الأشياء ، فعند ذلك يدرك حكم الصوم فيسارع له فينال منها على قدر استعداده وعلى حسب إسعاده .

﴿الرابع﴾ **طلب امتثاله :**

امتثال الأمر هو عبارة عن العمل بما سمع لأجل أن يصل بذلك إلى أن يكون القرآن حجة له لا عليه ، فكل من سمع آية الصوم مثلا وعمل بها كانت حجة له غدا عند الله ، وإن لم يعمل بها كانت حجة عليه فالامتثال هو نتيجة إيحاء الوحى وإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام قال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

﴿الخامس﴾ **طلب الأدب من المخاطب لعلمه بمخاطبه :**

المخاطب فى هذه الآية هو الله تعالى ، فالأدب معه هو أن تجتهد فى أن لا يراك حيث نهاك وأن لا يفقدك حيث أمرك ، وقد أمرك بالصوم فاحذر من أن يراك مفطرا فيه أو سابا أو مرتكبا لما حرم عليك ، واحذر كل الحذر من الغيبة والنميمة واللهو والقمار ومجالس السوء أو أن تكون تاركا للصلاة أو آكلا للربا ؛ فتارك الصلاة لا ثواب له على صومه ، وآكل الربا صومه مردود عليه ؛ أو شاربا للخمر كالويسكى والعرقى والدكارى والمريسة والبوظة وكل ما خامر العقل أو أسكره ، أو تكون بخيلا

(١) سورة التوبة – الآية (١٠٥).

فى شهر الكرم ، أحمق فى شهر الحلم ، منتقما فى شهر العفو ، أو تكون معرضا عن الله مقبلا عل غيره ، أو طالبا من غيره ما لا يطلب إلا منه كل ذلك من سوء الأدب وهو من أعظم القواطع عن الحق سبحانه وتعالى ، فمن لم يلزم الآداب يطرد إلى إصطبل الدواب .

﴿السادس﴾ **طلب العلم من المخاطب بمخاطبه :**

المخاطب هنا هو الله تعالى ، فيجب على كل مسلم أن يعلم أن الله تعالى واحد فى ذاته ، واحد فى صفاته ، واحد فى أفعاله ، متصف بكل كمال ، منزه عن كل نقصان ، فاعل مختار ، خالق لكل شىء ، وغنى عن كل شىء ، أمر الخلق بالطاعات لمصلحتهم ، ونهاهم عن السيئات خوف مضرتهم ، أمر بالطاعة ووعد عليها ثوابا ، ونهى عن المعصية وأوعد عليها عقابا ، فسبحان من قضى وقدر ، وأمر بالخير ونهى عن الشر ، فمن أطاع فقد امتثل أمر ربه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾[1] ، ومن عصى فقد امتثل أمر نفسه ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾[2] ، وأنه تعالى قد أنزل كتبا وأرسل رسلا ، وسيبعث الخلائق ويجزيهم بأعمالهم يوم القيامة ، وأن البعث حق كما أن اليقظة من النوم حق ، وأن كتاب الله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾[3] .

(١) سورة النحل – الآية (٩٠).
(٢) سورة يوسف – الآية (٥٣).
(٣) سورة الزلزلة – الآيات (٧،٨).

﴿السابع﴾ **تطهير باطنه وظاهره :**

فأما تطهير الظاهر فهو عبارة عن الغسل والوضوء بالماء الطهور ؛ لأن فيه تقوية للروح القدسية ، فكلما كان الجسد طاهرا كانت الروح قوية منشرحة ، وتطهير الباطن من الوساوس والتفكير المضر بالعقل والمشى مع وساوس الشيطان ، ومما يساعد على ذلك مشاهدة الله تعالى بعينى القلب حتى يرى ما لا يراه الناظرون ، فالحق تعالى من أسمائه الظاهر والباطن ، فطهر ظاهرك لأجل الظاهر ، وباطنك لأجل الباطن الذى أنعم عليك نعمه الظاهرة والباطنة ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[1] .

قال سيدى « *محمد على اليمانى الإدريسى* » رضي الله عنه وقد سمع قارئا يتلو هذه الآية ببلدة دنقلا : « يذكر الله تعالى عباده نعمه الظاهرة والباطنة » .

(١) سورة لقمان – الآية (٢٠).

﴿الثانى : من المباحث السبعة للآية الكريمة﴾
﴿الإيمان﴾

وهو عبارة عن اعتقاد قول النبى ﷺ : « **أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره حلوه ومره من الله** » . رواه البخارى ومسلم . وهذا الحديث هو تفسير للآيات الواردة فى شأن الإيمان .

« تؤمن بالله » :

أى تصدق بأن الله إله واحد لا شريك له لا يقع فى ملكه إلا ما أراد ولا يغلبه غالب ولا يضل ولا ينسى ، ليس بغافل فنذكره ، ولا ببعيد فنناديه ، ولا بجاهل فنعلمه ، تعالى عن المساعد والمشير ، كل فعله حسن ، وقوله حق ، بين لخلقه ما يحتاجون إليه ، وهدى المؤمنين لنوره بمشيئته ، ودحض حجة الكافرين بإقامة حجته ، لا يحتج عليه بقضاء وقدر بل له الحجة البالغة ، لا يدركه عقل ولا يحيط به نقل ، لا يدرك بالأبصار ولا يحل فى مكان ، فأهل السماوات فى ذلك كأهل الأرضين ، وعد المؤمنين برؤيته فى جنته ، ووعدهم بأنه وليهم وناصرهم يخرجهم من ظلمات المعاصى إلى أنوار الطاعات ، من جهل حقيقة ذاته وعلم بصفاته فهو الموحد ، ومن اعتقد معرفة حقيقة الذات فهو الكافر الملحد ، فليس الله فى شىء ولا شىء منه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(١) .

« والإيمان بالملائكة » :

هو أن تعتقد أن لله خلقا يقال لهم الملائكة خلقهم الله من النور ، لا يأكلون ولا يشربون ولا يتزوجون ، ولا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة ، ولا يعصون الله ولا يسبقونه بالقول ، وهم أسرع من البرق فى إجابة أمره ، عباد الله أكرمهم بالعبادة

(١) سورة الشورى – الآية (١١).

وشغلهم بالطاعة ، جند الله فى سماواته وأرضه ، قائمون بالأوامر دائما وأبدا ، لم يكن واحد منهم خاليا عن شغل ولا مقدار لحظة ، فمنهم الرؤساء الأربعة **جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل** ، فالأول للوحى ، والثانى للأرزاق ، والثالث لنفخ الصور ، والرابع لقبض الأرواح ، وبقية الملائكة كل طائفة منهم قائمة بمصلحة ؛ فمنهم حملة العرش والكتبة والحفظة والسياحون والمختبرون للعباد والمسلمون عليهم ، يتشكلون بالصور الحسنة ، ولا تحكم عليهم صورة ولا يتسلط عليهم أحد ، خلقهم الله وسيميتهم ، ثم يبعثهم الله ويدخلهم الجنة فيسلمون على المؤمنين من كل باب ، ومن كان منهم فى النار كسيدنا مالك ومن معه فهم كالذين فى الجنة لا تدركهم النار ، ولا يتأثرون بصراخ أهل الأوزار ، والملائكة الذين جاهدوا مع رسول الله ﷺ سمعت من شيخى *المطيعى* قولا لم أسمعه من غيره وهو : « الملائكة الذين نزلوا لنصر النبى ﷺ لا يزالون ما بين السماء والأرض يجاهدون مع كل مخلص فى جهاده لله رب العالمين » تلك حكمة الله العجيبة فتفكر يا مؤمن ولا تكن غافلا .

« والإيمان بالكتاب » :

قال *الباجورى* رحمه الله : والتحقيق الإمساك عن حصرها فى عدد فيجب اعتقاد أن الله تعالى أنزل كتبا من السماء على الإجمال ؛ نعم الكتب الأربعة يجب معرفتها على التفصيل وهى : الزبور والتوراة والإنجيل والفرقان ، فالأول لسيدنا داود ، والثانى لسيدنا موسى ، والثالث لسيدنا عيسى ، والرابع لسيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليهم .

« والإيمان بالأنبياء صلى الله عليهم وسلم » :

قال *الباجورى* رحمه الله : والصحيح الإمساك عن حصرهم فى عدد ؛ لأنه ربما أدى إلى إثبات النبوة لمن ليس كذلك ، أو إلى نفيها عمن هو كذلك فيجب الإيمان

بأن لله أنبياء على الإجمال إلا خمسة وعشرين فيجب معرفتهم على التفصيل ، أولهم آدم ، وآخرهم سيدنا محمد ﷺ .

« والإيمان باليوم الآخر » :

هو أن يعتقد أنه لابد من مجيء يوم يسمى اليوم الآخر ، وسمى بالآخر لأنه آخر الأيام وقيل : لأنه لا دليل بعده ، وأوله من النفخة الثانية ، وقيل : من الحشر ، وقيل : من الموت ولا نهاية له ، وقيل : ينتهى بدخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، والمراد بالنفخة الثانية نفخة البعث وهو إحياء الله الأبدان من القبور ، وذلك أنه بعد موت الخلائق بالنفخة الأولى وهى نفخة الصعق ، وبين النفختين أربعون عاما ، تمطر السماء ماءا كمنى الرجال أربعون يوما بشدة كأفواه القرب حتى يكون الماء قدر اثنى عشر ذراعا ، ثم يأمر الله الأجساد فتنبت كإنبات البقل حتى إذا تكاملت فكانت كما كانت يقول الله تعالى : ليحى جبريل وميكائيل وإسرافيل ، ثم يأمر إسرافيل فيأخذ الصور وهو قرن من نور كهيئة البوق الذى يزمر به لكنه عظيم كعرض السماء والأرض كما فى الحديث ثم يدعو الله الأرواح فيلقيها فى الصور ويأمر إسرافيل بالنفخ فتخرج الأرواح مثل النحل فتمشى فى الأجساد مشى السم فى اللديغ وذلك هو المسمى بالنشر ، وأما الحشر فهو سوق الناس إلى المحشر ، ثم ينصب الميزان ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾[1] .

« والإيمان بالقدر » :

هو عبارة عن أن يعتقد المؤمن أن كل ما يقع فى الوجود فهو بإرادته تعالى من خير وشر وحلو ومر غير أنك تعلم أنه تعالى قد يريد الشيء ويأمر به كإيمان المؤمن ، وقد

(١) سورة القارعة – الآيات (٦،٧،٨،٩).

يريد ولا يأمر ككفر الكافر ، وقد يأمر ولا يريد كإيمان أبى جهل ، وقد لا يريد ولا يأمر ككفر المؤمن ، فإذا كنت فى شدة فاستغث بالله الميسر ، وإذا كنت فى معصية فاخش الله المحذر ، وأما قول العوام : أراد الله لى المعصية ولأى شىء يعذبنى عليها فهذا قول شيطانى لا جواب له إلا السكوت ، وكان الأولى أن يقول : أراد لى الطاعة ووفقنى لفعلها فكيف ينسبها إلى ويعطينى عليها أجرا إن هذا لهو الفضل العظيم ﴿ لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴾[1] .

(١) سورة الصافات – الآية (٦١).

﴿الثالث : من المباحث السبعة للآية الكريمة﴾
﴿وصفهم بالعبودية﴾

العبودية هى تحقق العبد بالكمالات الروحية ، وتخليه عن الأوصاف النفسانية ، وتسليمه الأمور جميعها لمليكه العادل اعترافا بملكه وثقة بعدله كما قيل :

ومن الدلائل أن تراه مسلما   كل الأمور إلى المليك العادل

وأن يكون تاركا للتدبير ، لمن له الحكم والتأثير ، كيف يدبر عبد سبقه العدم ، ويلحقه الفناء ، مع من يدبر الأمر من السماء ؟! أم كيف يؤثر الظل فى فناء ؟! وهل الحكم للثلج أم للماء ؟! فيجزى الله المتصفين بأوصاف العبودية التى منها الفقر لله والعجز والتواضع والانكسار والتذلل والتفويض والرضا عند قبض القابض وبسط الباسط والتوكل على الله والفرح بالله والود فى الله غنى وقوة ورفعة وعزة وإلهاما ورضوانا ونصرا ومحبة وودا دائما .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[1] . أمدنى ربى وخالقى بتفسير لهذه الآية الكريمة وأنا بالأزهر الشريف وهو : أن الله تعالى يخبر عباده بأنهم هم الفقراء المحتاجون إليه فى كل شىء ، فهو الذى أمدهم بالوجود ، وتكفل لهم بأرزاقهم ، وقدر لهم الحياتين وهداهم إلى ما قدره لهم للحياتين ، « **فكل ميسر لما خلق له** » وجعل لكل مقدور زمانا ، فالناس مفتقرون إلى الله تعالى فى الزمان والمكان ، وفى إيجاد المقدور من أمر معاشهم وغيره ، وفى وصوله إليهم ووصولهم له ، فقد يطلب الإنسان الشىء فلا يجد له سبيلا ، وقد يطلبه الشىء فلا يجده ، ما ذاك إلا لعدم تقدير حصول الملاقاة .

---

(١) سورة فاطر – الآية (١٥).

قلت فى منظومتى الوسطى فى التوحيد وهى أكبر من « مصلحة السريرة فى نظم العقائد المنيرة » للعبد الفقير أيضا :

قد قدر المولى جميع الأشيا ... معاشنا مماتنا والمحيا
وعد أنفاسا لنا والأمكنة ... فى بر أو بحر كذاك الأزمنة
فكل مخلوق ميسر لما ... قضاه مولانا الحكيم قدما
فلا تكن مخالفا محكما ... للعقل والعادة بل مسلما

﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾[1] ، أى الغنى عن كل ذلك فهو الخالق ولا خالق له والمقدر ولا مقدر له ﴿ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُ ﴾[2] ، ذو الغنى المطلق ، الحميد الذى يحمد فعله لأنه لا يخلو عن حكمة ، فسبحان من أغنى الغنى فشكر ، وأفقر الفقير فصبر ، ولو أغنى الفقير لفجر ، أو أفقر الغنى لكفر ، سبحان من أكرم فى المنع والعطاء ، وحمد فيهما عند العقلاء ﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾[3] ، المحمود فى المنع والعطاء ، ولا يحمد فى المنع سواه لأن منعه عين العطاء .

قلت فى الوسطى :

وكل ما زواه عن عبيده ... مما يحب عبده لسعده
فمنعم فى المنع والعطاء ... الأكرم الإله ذو النعماء

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[4] ، أى المهيمن الذى قدر لكم الأشياء إذ لا عليم بمصلحتكم وبما يلائم طباعكم ويهذب نفوسكم سواه ، فإذا رضيتم بما ظهر

(١) سورة فاطر – الآية (١٥).
(٢) سورة الأنعام – الآية (١٤).
(٣) سورة العلق – الآية (٣).
(٤) سورة البقرة – الآية (٢١٦).

لكم فقد رضيتم بقضائه وأحببتم ما اختاره لكم على وفق علمه القديم ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾[1] ، فإذا كنت ببلد مثلا فلا تكره أن تكون بها ؛ لأنك تكره ما أراده الله لك ، ولا تنتقل منها بنفسك ؛ لأنك إذا نويت الرحيل منها ولم يرده هو كانت نيتك عبثا ويستحيل – ولو اجتمعت الإنس والجن – أن تنتقل منها ، وإذا أراد سفرك منها ولم ترده أنت سافرت رغم أنفك ويستحيل عليك أن تبقى بها ، ومن قال فلان فى جهة كذا وفى وظيفة كذا ولم يرد الله له ذلك فقد كفر .

وكل شيء بقضاء وقدر ... وكل مقدور فما منه مفر

فمظاهر الأسماء الإلهية قسمان : بلا واسطة كخلق السماء والأرض والملائكة ، وبواسطة كالمواليد الثلاثة الحيوان والنبات والجماد ، والذى لم يكن بواسطة أكبر مما كان بها ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾[2] ، هذا بالنسبة لعقولنا ، وأما بالنسبة له تعالى فكل شيء عليه هين فلا أهون ولا أكبر بل كل أفعاله مبدعة متقنة محكمة ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[3] ، وفى خلقه تعالى الناس هنا بواسطة إشارة إلى أن هذه الحياة لابد فيها من الأسباب فهى دار السعى والعمل .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾[4] ، أشياء عجيبة ستظهر إن شاء الله تعالى فى كتابى المسمى « عجائب القرآن لمن أراد الإيمان » منها أن الإرادة من غير سعى غير مشكورة ؛ لأن مثل الإرادة كالروح والسعى كالجسد ، والروح إنما تظهر انفعالاتها على جسدها فإذا فقد الجسد فقدت

(١) سورة القصص – الآية (٦٨).
(٢) سورة غافر – الآية (٥٧).
(٣) سورة النمل – الآية (٨٨).
(٤) سورة الإسراء – الآية (١٩).

انفعالاتها الظاهرية . ومنها أن السعى لابد أن يكون موصلا بالمسعى إليه لأنه بالنسبة للشىء المسعى له كالطريق والوصول إليه متوقف على السير فى الطريق . فمن أراد أن يزور ضريح « *سيدى أحمد بن إدريس* » ﷺ مثلا الكائن ببلدة صبيا باليمن — لأن من آداب أهل الطريق زيارة أضرحة مشايخهم ويعتقدون أن الفتوح بسببها — فهل يمكنه أن يصل إليه إلا بطريق اليمن ؟ فمن أراد الدار الآخرة فليعمل لها العمل الصالح الذى جعله الله طريقا لها ، والدار الآخرة هى الجنة ، فالتقوى طريق إلى الجنة ووقاية من النار ، والمعاصى طريق إلى جهنم وحجاب عن الجنة .

ومنها أن فى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾[1] ، إشارة إلى قوله ﷺ : « **ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة** » رواه الترمذى والحاكم . فالسعى فى الأعمال الصالحة لابد أن يعتقد أن الله تعالى سيثيبه على عمله ، وسيدخله الجنة برحمته ، وسيضاعف له الثواب ، وإنما الاتهام يكون من العبد لنفسه فى عدم تيقنه الإتقان منها ، ورميها بالتقصير خوف طغيانها ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾[2] ، لأن النفس إذا أثنى عليها صاحبها وأظهر لها الثقة بها طغت على غيرها ، ورأت أفضليتها لحسن عملها ، واستغنت عن الإرشاد من غيرها ، إذ من آداب القوم أن يسمعوا الموعظة من كل أحد ولو عاميا فإن وجدوا فى كلامه نورا يوافق حالهم عملوا به وإلا اعتذروا له ، كما قلت فى تائيتى :

تخلق بأخلاق الكرام وكن لمن … يعظك سميعا عاملا بالنصيحة
تصبر تعفف لا تخالط ذوى الهوى … فتهوى بك الأهواء نحو الضلالة

وفى هذا القدر كفاية فيما يتعلق بالعبودية .

(١) سورة الإسراء – الآية (١٩).
(٢) سورة العلق – الآيات (٦،٧).

﴿الرابع : من المباحث السبعة للآية الكريمة﴾
﴿الفرض الواجب﴾

فى قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ﴾[1] ، يعنى أن الله تعالى يقول : فرضت وأوجبت الصيام عليكم ، فصوم رمضان فرض واجب على كل مسلم ومسلمة ، يثاب صائمه ويعاقب مفطره من غير عذر ، والفرض والواجب مترادفان عند مالك والشافعى إلا فى باب الحج فالفرض ما لا يجبر بالدم والواجب ما يجبر وهو واحد من الأحكام التكليفية الخمسة وهى :

﴿الأول﴾ الواجب : وهو ما يثاب على فعله ويعاقب على تركه كصوم رمضان .
﴿الثانى﴾ الحرام : وهو ما يعاقب على فعله ويثاب على تركه كإفطار رمضان .
﴿الثالث﴾ المندوب : وهو ما يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه كالسحور .
﴿الرابع﴾ المكروه : وهو ما يثاب على تركه ولا يعاقب على فعله كذوق الملح للصائم .
﴿الخامس﴾ المباح : وهو ما لا يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه كالأكل والشرب .

وهناك خمسة أخرى تسمى الأحكام الوضعية وهى : الشرط والمانع والسبب والصحة والفساد .

(١) سورة البقرة – الآية (١٨٣).

﴿الخامس : من المباحث السبعة للآية الكريمة﴾
﴿الصوم﴾

يأمرنا الله تعالى فى هذه الآية بالصوم — وهو **لغة** : الإمساك والترك ، قال تعالى حكاية عن « *مريم* » رضى الله عنها : ﴿ فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا ﴾[1] ، أى صمتا وإمساكا عن الكلام ، قال الشاعر :

خيل صيام وخيل غير صائمة ... تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

وشرعا : الإمساك عن شهوتى البطن والفرج يوما كاملا من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، أى يترك ما يصل إلى البطن أو إلى الحلق من الفم وغيره من عين أو أذن مثلا ، ويترك الجماع وغيره من الأسباب الموجبة للفطر كلمس يصاحبه خروج منى أو مذى « بنية » أى قبل الفجر أو معه « فى غير زمن الحيض والنفاس وأيام الأعياد » . والأكمل أن ينوى بصومه التقرب إلى الله تعالى ، فلو لم ينو التقرب لصح الصوم « قلت » لكن لابد من أن يعتقد أن الصوم واجب أوجبه الله تعالى فإن لم يعتقد ذلك فصومه باطل .

فرض رمضان فى السنة الثالثة من الهجرة يوم الاثنين من شعبان بعد ليلتين خلتا منه ، وهو واجب بالكتاب والسنة والإجماع ، فمن أنكر وجوبه كفر ومن ترك صومه لغير عذر فهو فاسق ، ونسبته لبقية شهور السنة أنه أفضلها ، وسمى رمضان لأنه يرمض الذنوب أى يحرقها ، ثم إننى أقدم نصيحة عامة لكل مسلم ومسلمة أنه لابد من قراءة باب الصوم ، كل إنسان يقرؤه على عالم من علماء مذهبه حتى يكون الصيام على بصيرة كاملة متقنا موافقا للكتاب والسنة لأن كل مذهب من المذاهب الأربعة هو على الكتاب والسنة وسأجمع إن شاء الله فقه المذاهب الأربعة فى الصوم

(١) سورة مريم – الآية (٢٦).

فى كتاب مستقل أسأل الله أن ييسره آمين . وقد فتح الله على فى معانى حروف الصوم بهذه الكلمات :

من أسرار حروف الصوم

﴿**صاده**﴾ : تشير إلى الصبر قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[١] ، قيل هم الصائمون « قلت » : ووصف الصائمين بالصبر ظاهر لأنهم صبروا على فراق الطعام والشراب وغير ذلك مما يمنع منه الصائم . وكون الأجر بغير حساب لمشقة الصوم ، وفى الحديث عن رسول الله ﷺ : « **الصوم نصف الصبر** » رواه ابن ماجه . والصبر هو أعظم خلق يحتاجه الإنسان لأنه سبب السعادة ، ومنبع الترقى الروحى ، وعنوان الشجاعة إذ به تتميز وتعرف الأبطال ، والصبر هو ثبات الإنسان وبقاؤه مع إنسانيته ، وإجابته داعى الله عن إجابته داعى الهوى والنفس والشيطان فيسمع بأذن قلبه ﴿ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾[٢] ، فيجيب ، ولربه ينيب ، فإذا دعاه داعى الهوى رد عليه بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[٣] ، وإذا نادته النفس رد عليها بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾[٤] ، وإذا وسوس إليه الشيطان رد عليه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾[٥] ، فيكون بصبره ثابتا مع إنسانيته أى لم ينتقل منها إلى الوحشية بالغدر ، أو إلى البهيمية باتباع الشهوات ، أو إلى إرتكاب

(١) سورة الزمر – الآية (١٠).
(٢) سورة الأحقاف – الآية (٣١).
(٣) سورة ص – الآية (٢٦).
(٤) سورة يوسف – الآية (٥٣).
(٥) سورة فاطر – الآية (٦).

المخالفات ومقاطعة الناس وسوق الشر إليهم والسعى فى إفساد مجتمعهم وكل ما يخالف مقتضيات الإنسانية التى امتن الله تعالى بها عليه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾[1] ، أى اعبدوا الله الذى تكرم عليكم بالإنسانية ، أى بأجسام وصور حسنة تؤلف ، ونفخ فيها روحا تميل إلى الأنس وإلى فعل الفضائل واكتساب العلوم ، وخلق الذين من قبلكم كذلك إذ لو كانوا وحوشا لخرجتم أنتم وحوشا ، والوحش صورته إما مفزعة أو غير مألوفة ، فلو نفخت أرواحكم فى أجسام وحوش لنفرت وتضايقت من أجسامها فضلا عن أن تستأنس بغيرها . فسبحان من علم بطبائع الأرواح وما تحبه ، فخلق لها أجسادا فى أحسن تقويم فى صورة علم الله أزلا أن الأرواح إذا رأتها أحبتها ولولا ذلك لكنا فى أشد العذاب .

ويكون بالصبر أيضا مجيبا لداعى الحق سبحانه وتعالى عندما تأمره نفسه بالسوء وشيطانه بالمنكر ، فيصبر على مداومة طاعة ربه وعلى هجر شهوات نفسه مخالفا بصبره لأوامر نفسه التى هى من أشد الأعداء إليه والتى لا تأمره إلا بالسوء ما لم ترحم ، فإذا رحمها الله اهتدت إليه بنوره ﴿ يَهۡدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[2] ، فعند ذلك تشاهد نور الطاعة فتأمر بها وتسارع إليها وتشاهد ظلمة المعصية فتنهى عنها وتفر منها ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَاىَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[3] ، فيكون مخالفا لشيطانه عندما يأتى إليه بالسوء والفحشاء والمنكر ؛ لأن الشيطان دائما وأبدا يسعى فى مضرة الإنسان وهلاكه ، وحزنه وفقره ،

(١) سورة البقرة – الآية (٢١).
(٢) سورة النور – الآية (٣٥).
(٣) سورة يوسف – الآية (٢٣).

وكفره وفسقه ، وتركه للصلاة والزكاة والحج والصوم ، فكلما أراد الإنسان الصلاة قال له إن كان تاركا لها : لأى شىء تصلى الآن ، وقد تركت الصلاة زمنا طويلا ، ماذا يقول عليك الناس ؟ الأولى لك أن تتركها كعادتك خوف أن يضحك الناس عليك ، وإن كان يصلى يقول له إذا جاء وقت الصلاة : الوقت باق تمهل قليلا ثم قليلا حتى ترتاح وتصلى بعد النوم صلاة محكمة حتى تطول المدة ويذهب وقت الصلاة فيقع العبد فى الوعيد الذى فى قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ﴾[1] ، ويل : أى واد فى جهنم للذين يؤخرون الفرض حتى يخرج وقته ، ويقول للغنى : إن الزكاة تنقص مالك فلا تزك إن الناس قد تركوا الزكاة جميعا أفتزكى أنت وحدك ؟ كن كغيرك من أهل بلدك ولا تشذ عنهم حتى تمضى عليه السنون من غير زكاة فيقع فى الوعيد الذى فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ ﴾ الآيتين[2] ، ويقول للذى يريد الحج تأخر إلى السنة الآتية أنت إلى الآن صغير ، بدل الحج اشتر لك أرضا أو حانوتا ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾[3] ، فلا يزال هكذا حتى تمضى السنون ولم يحج وتجمعت عنده أموال كثيرة ، وإذا سمع قول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ ﴾[4] ، سمعها وكأنه لم يسمعها ، وأخذ يحتال كما يحتال الثعلب ويبدى أعذارا أملاها عليه الشيطان قد علم ببطلانها الرحمن ، ويقول للصائم أفطر

(١) سورة الماعون – الآيات (٤،٥).
(٢) سورة التوبة – الآية (٣٤).
(٣) سورة الأنفال – الآية (٦٧).
(٤) سورة آل عمران – الآية (٩٧).

خفية من الناس خوف أن يضعف جسمك ، أو تمارض لأجل أن تفطر لك يومين أو ثلاثة فلا يزال به حتى يوقعه فيما حرم الله من الفطر فيهوى به فى الحميم .

فالمؤمن الكامل العاقل الصبور هو الذى أجاب ربه وخالف نفسه وهواه وشيطانه ، وسارع إلى الطاعات قبل الممات ؛ فإن الأعمار غير مضمونة ، والمنايا غير مأمونة ، فجامع المال يموت ويترك ماله ، وجامع الأعمال الصالحة يموت ويدفن معه عمله فيعرف حاله . قال *البخارى* رضي الله عنه :

اغتنم فى الفراغ فضل ركوع ... فعسى أن يكون موتك بغتة
كم صحيح من غير سقم رأينا ... ذهبت نفسه الشريفة فلتة

وفى لاميتى :

واذكر الموت ولا تغفل فما ... أجهل الغافل عن موت نزل
جامع الأموال فى أوقاته ... ضاع منك العمر فى شىء جلل

« **وواوه** » : يشير إلى الورع « وهو الأخذ بالأحوط فى العبادات ، والإخلاص فى المعاملات ، ومحاسبة النفس على الأوقات ، والفرار من الشبهات ، والتوجه إلى الله فى جميع الحالات » فلذلك يقول ﷺ : « **والورع سيد العمل** » رواه الترمذى . ولما سئل الشيخ *السقا* رحمه الله عن الورع فى هذا الزمان ، وكان يقرأ الحديث بالأزهر الشريف وقد مر عليه هذا الحديث فقال « كالشيخ *محمد عليش* » فمن ورعه أنه كانت له مخلاة يحمل فيها حذاءه إذا دخل المسجد ، وكان قويا فى الدين لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وله مؤلفات بديعة يلوح عليها نور الورع ، وتشم منها رائحة الإخلاص ، رضي الله عنه ؛ إذ بالصوم يرق القلب ويمتلىء خوفا من الله عز وجل ، فينشأ عن ذلك إتقان العمل وترك ما فيه شبهة ، والأخذ بالأحوط ؛ لأن الأخذ بالأحوط ؛ يكون صاحبه على يقين من صحة عمله عند جميع الأئمة فهو دأب الصالحين ،

وكذلك ترك الفضول فى القول والنوم والطعام والشراب ، ومن الورع عدم الاشتغال بما لا يعنى ، والمبادرة إلى نفع المسلمين ، والإخلاص للدين والوطن والتبصر فيما ينفع المجتمع ، ومن الورع بيع النفس فى سبيل ذلك ، فالمؤمن الورع هو الذى يجعل نفسه وماله فى سبيل الله والوطن ، فمن لا غيرة له على دينه وأرضه وعرضه فما هو بالورع ، بل ليس هو بالمؤمن الكامل ، فالورع هو المقدام عند اللقاء ، الوثاب عند التحام الجيشين الذى يرى فى قتل نفسه عزة من يحيا بعده فيجود بها من أجل ذلك ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1] .

كل ذلك نكتسبه بالصوم الذى يكشف لنا عن علوم الروح التى هى ذاتية لها مكتسبة أزلا بتعليم إلهى ، وقد أنزلها الله تعالى ونفخها فى هذا الجسد لإظهار العلوم والكمالات ، فحجبت علومها بكثافة الجسم ، وكمالاتها بظلمات النفس التى تستنير بالصوم ، وأيضا تشف به كثافة الجسم بالنشاط والعمل ، إذ كلما شفت كثافة الجسم ظهرت لطافة الروح الموصوفة بالنشاط والقوة وسرعة الحركة ، وكلما قلت ظلمات النفس ظهرت كمالات الروح وأسرارها العجيبة .

قلت فى تائيتى المسماة فتح الباب إلى طريق الأحباب :

جاءت إليك الروح وهى عزيزة	فارفق بها من أن ترى فى ذلة
وانهض بها نحو العلا متسربلا	ثوب الخشوع مؤيدا بالعزة
فتمد من قبل الإله بما به	أهل الصيام تفوز يوم العسرة
هيهات للنوام أن يحظوا بما	يلقاه سهار الدجى فى جنة

(١) سورة الحشر - الآية (٩).

« **والميم** » : إشارة إلى محسن ، أى صاحب الإحسان الذى هو أمر جامع لكل خير ، وهو أيضا فعل الخير مع الله تعالى بمعنى طاعة أمره واجتناب نهيه ، وإلى الرسول ﷺ بمعنى طاعة أمره واجتناب نهيه والإقتداء بعمله ﷺ .

(فالإحسان) إلى النفس هو سوقها إلى طريق الخير ، وإبعادها عن طريق الشر .

والإحسان إلى الخلق هو حسن الخلق معهم وبذل المعروف لهم ، وترك الضرار والضرر .

والإحسان إلى البهائم هو عدم تكليفها بما لا تطيق ، وإعطاؤها ما يلزمها من مأكل ومشرب وظل وراحة .

والإحسان إلى الذبائح أن يحد المدية ، وأن يريح الذبيحة .

وإذا قتل شيئا مما يؤذن فى قتله كالضوارى من الوحوش والمؤذى من الحشرات فالإحسان إليه ارتكاب أقرب الطرق إلى إزهاق روحه من غير تعذيب .

والإحسان إلى الزوجة أن يتحمل أذاها وأن يقوم بواجبها حسب طاقته ، وإلى الأولاد أن يقوم بأمر معاشهم وحسن تربيتهم وتعليمهم ، وإلى الوالدين أن يطيع أمرهم فيما يرى فيه مصلحة الدين ومصلحتهم وفيما يعود عليه وعليهم بالمنفعة ، وإلى الإخوان الأشقاء أن يوقر كبيرهم وأن يرحم صغيرهم وينظر إليه نظر الوالد الشفوق إلى ولده .

وفى الحديث « **إن الله كتب الإحسان على كل شىء** » رواه مسلم وأبو داود والترمذى ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾[1] ، فمن لا عدل عنده لا إحسان عنده ، لأن العدل إعطاء كل ذى حق حقه ، فالعادل هو الذى قام

(١) سورة النحل – الآية (٩٠).

بحقوق الخالق والخلق ووضع الأشياء فى مواضعها ، فمن فعل إحسانا فى غير موضعه فليس بعادل ، وليس بمحسن ، لأن إحسانه ينقلب إساءة ، وعدله ينقلب ظلما ، فالإحسان يكون فى كل شىء على حسبه ، وما أحسن الإحسان الذى سبقه عدل ، فلو أخذ النفقة الواجبة عليه لوالديه أو النفقة الواجبة عليه لزوجته وأولاده وتصدق بها أيكون عادلا أم ظالما ؟ محسنا أم مسيئا ؟ يكون ظالما مسيئا آثما ، ولاسيما إن كانوا فى فقر وشدة .

ويطلق الإحسان أيضا على مشاهدة العبد ربه أو أن ربه يراه ، فالصوم إحسان لأنه إحسان إلى النفس يتسبب عنه إحسان إلى الغير .

فقد تبين لك أن الصوم شجرة خير طيبة أصلها ثابت فى أرض الجسم وثوابها يضىء فى سماء الروح الأولى المشرقة على أرض الجسم الظاهرة فتستضىء بأنوارها سكانها من الجوارح ، فكلما دنا منها عدوها أسقطت من سمائها أنوار ذكرها شهابا طاردا لعدوها ، وكلما كلت الجوارح أمطرت عليها من ماء عذب حكمها علوما اهتزت لها الجوارح وربت وأنبتت على ظاهر وجودها خشية واقشعرارا ، وأثمرت من آثار أعمالها عملا صالحا يحبه الله ويرضاه .

فالصائم هو المؤمن الجامع لجميع صفات الخير التى من أعظمها الحكمة ، والعفة ، والشجاعة ، والعدالة . وقد أجمع الحكماء على أن هذه الأربعة هى أجناس الفضائل .

فالحكمة : هى فضيلة النفس الناطقة المميزة وهى أن تعلم الأمور الإلهية ويثمر علمها بذلك ، وأن تعرف المعقولات أيها يجب أن يُفعل وأيها يجب أن يترك ، وهى تتقوى بخلو البطن وتستنير وتظهر آثارها كاملة .وفى لآميتى :

حكمة فى المرء تدرى بالتقى وخلو البطن من داء الثقل

والعفة : هى فضيلة الحس الشهوانى ، وظهور هذه الفضيلة فى الإنسان يكون بأن يصرف شهواته بحسب الرأى ، أعنى أن يوافق التمييز الصحيح حتى لا ينقاد بها ، ويصير بذلك حرا غير متعبد لشىء من شهواته ، ومن دعائه ﷺ : « **اللهم إنى أسألك الصحة والعفة** » رواه البزار والطبرانى ، وفى لاميتى :

كن عفيفا إن فى العفة ما — يمنع الإنسان من كل زلل

فمن تعفف عن أموال الناس وعن هتك أعراضهم أعفه الله وحفظ ماله وعرضه ، ومن تسلط على الناس سلط الله عليه الناس ؛ ومن تاب تاب الله عليه ونقله إلى أحسن حال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1] .

وأما الشجاعة : فهى فضيلة النفس الغضبية ، وتظهر فى الإنسان بحسب انقيادها للنفس الناطقة المميزة واستعمال ما يوجبه الرأى فى الأمور الهائلة ، أعنى أن لا يخاف من الأمور المفزعة إذا كان فعلها جميلا والصبر عليها محمودا .

وفى لاميتى :

كن شجاعا فى سبيل الحق لا — تظهر الخوف إذا حرب حصل

ليس موت المرء فى وثبته — إنما الموت منوط بالأجل

كم شجاع نال فى مقتله — شرفا يبقى وما السيف قتل

تظهر الشجاعة فى القتال ، والمؤمن يعلم أنه لا يموت إلا بإذن الله علما لا شك فيه ، ومن شك فقد كفر ، فلو تسلطت عليه مدافع الدنيا وغازاتها السامة والله تعالى لم يرد موته بها فهو والله لا يموت بها ، والذى فى صفوف القتال أيضا لا يموت إلا بإذن الله ، فوقوفه أمام المدافع لا يغير حكم الله فى عمره ، فكم من جندى رأيناه حضر عدة وقائع حربية وهو الآن حى سليم الحواس ، وكم من رجل فى داره على سريره يموت فى لحة . فاعلموا يا أخوانى أن أمر الموت مفروغ منه ، لأنه معلوم لدى

---

(١) سورة الرعد – الآية (١١).

الجميع أن العمر واحد ، وقد سمعنا جميعا قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾(1) .

وميت بعمره من يقتل وغيره هذا باطل لا يقبل

فإن قيل : إذا كان الأمر كما ذكر فلأى شىء نحتاط ونتعب أنفسنا فى استعمال الكمامات وغيرها ؟

الجواب : أن الله تعالى قد أمرنا بأن نأخذ حذرنا سواء قدر لنا هذا الشىء الذى نحذره أم لا قال تعالى : ﴿ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾(2) . فما يدخل تحت هذا الأمر الإلهى عدم تعرضنا للغازات السامة من غير كمامات ، ومنها أيضا أن نتعلم كيفية مقاومة مكائد الأعداء ، وتحصين منازلنا وإتباع حكومتنا فى كل ما تأمرنا به مما فيه مصلحة لنا ولجندنا وبلادنا .

فإن قيل : إن العدو لم يحاربنا فلأى شىء نعد له ما نقاومه به فهلا تركناه حتى يحاربنا ؟

الجواب : أن الله تعالى قد أمرنا باتخاذ القوة وإعدادها قبل وقوع الحرب ، أما سمعتم قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾(3) . والعدة لا تكون إلا قبل المهاجمة إذ معها لا يمكن للإنسان أن يعد شيئا بل إما نصر أو خذلان ، فإن كان مستعدا نصر ، وإن كان غافلا تاركا للاستعداد خذل ، وفى قوله تعالى : ﴿ مَّا ٱسْتَطَعْتُم ﴾(4) ، سر عجيب فكأنه يقول : كل فرد يعد طاقته ، حتى النساء

(1) سورة آل عمران – الآية (١٤٥).
(2) سورة النساء – الآية (١٠٢).
(3) سورة الأنفال – الآية (٦٠).
(4) سورة الأنفال – الآية (٦٠).

يشاركن فى أخذ العدة ، فمن كانت منهن غنية وجب عليها أن تساعد جيشها ورجال بلادها .

وأما عند وقوع الحرب ودخول العدو البلد فيجب على كل فرد ذكر أو أنثى أن يظهر جهادا ومقاومة شديدة ، هذا إذا كان يشارك الجند فيما عندهم من المعلومات وأخذ الاحتياطات وأما إذا كان مجردا من « أل والإضافة » ، فليسارع إلى ما تشير به إليه حكومته ، وتكون مساعدته إظهارا للصبر والثبات والتقوى بكلمات النصر خصوصا أمام النساء والأطفال « **بشروا ولا تنفروا** » [1].

وأما العدالة : فهى فضيلة للنفس تحدث لها من اجتماع هذه الثلاث التى عددناها ، وكذلك عند مسالمة هذه القوى بعضها لبعض ، واستسلامها للقوة المميزة حتى لا تتغالب ولا تتحرك لنحو مطلوباتها على سوم طبائعها ، ويحدث للإنسان بها سجية يختار بها أبدا الإنصاف والانتصاف من غيره وله .

وكل واحدة من هذه الأربعة أثمرت أشياء :

فالحكمة : أثمرت الذكاء ، والذكر ، والتعقل ، وسرعة الفهم ، وقوته ، وصفاء الذهن ، وسهولة التعلم .

والعفة : أثمرت الحياء ، والدعة ، والصبر ، والسخاء ، والحرية ، والقناعة ، والدماثة ، والانتظام ، وحسن الهدى ، والمسالمة ، والوقار ، والورع .

والشجاعة : أثمرت كبر النفس ، والنجدة ، وعظم الهمة ، والثبات ، والصبر ، والحلم ، وعدم الطيش ، والشهامة ، واحتمال الكدر ، والفرق بين هذا الصبر والذى فى العفة أن هذا يكون فى الأمور الهائلة والمتقدم يكون فى الشهوات الهائجة.

والسخاء : أورث الكرم ، والإيثار ، والنبل ، والمساواة ، والسماحة ، والمسامحة

(٢) من حديث رواه مسلم .

والعدالــة : أثمـرت الـصداقة ، والألفـة ، وصـلة الـرحم ، والمكافـأة ، وحـسن الشركة ، وحسن القضاء ، والتودد ، والعبادة ، وترك الحقد ، ومكافأة الـشر بـالخير ، واسـتعمال اللطـف ، وركـوب المـروءة فـى جميـع الأحـوال وتـرك المعـاداة وتـرك الحكاية عمن ليس بعدل .

فقد علمـت أن جميـع هـذه الـصفات مـن الـروح وكلمـا قويـت زادت علومهـا ولا تقوى بشىء كقوتها بالصوم فلذلك فرضه الله تعالى على الأمة .

﴿السادس : من المباحث السبعة للآية الكريمة﴾
﴿تعلق الصوم بالذين من قبلنا﴾

فـى قولـه تعـالى : ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾[1] ، فـى حيـز النصب على أنه نعت للمصدر المؤكد أى كتابا كائنا كما كتب ، أو على أنه حال من المصدر المعرفة أى كتب عليكم الصيام الكتب مشبها بما كتب فما على الوجهين مصدرية ، أو على أنه نعت لمصدر من لفظ الصيام أى صوما مماثلا للصوم المكتوب على من قبلكم ، فما موصولة ، أو على أنه حال من الصيام أى حال كونه مماثلا لما كتب ، وإنما ذكرت الإعراب هنا لأجل أن نستأنس به فيما سيأتى عن صوم السابقين . ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾[2] ، من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأممهم من لدن آدم عليه السلام ، وفيه تأكيد وترغيب فيه ، وتطييب لأنفس المخاطبين به ، فإن الشاق إذا عم سهل عمله — والمراد بالمماثلة إما المماثلة فى أصل الوجوب ، وإما فى الوقت والمقدار كما يروى أن صوم رمضان كان مكتوبا على اليهود والنصارى ، أما اليهود فقد تركته وصامت يوما من السنة زعموا أنه يوم غرق فرعون ، وكذبوا فى ذلك ، فإنه كان يوم عاشوراء ، وأما النصارى فإنهم صاموا رمضان حتى صادفوا حرا شديدا فاجتمعت آراء علمائهم على تعيين فصل واحد بين الصيف والشتاء فجعلوه فى الربيع وزادوا عليه عشرة أيام كفارة لما صنعوا فصار أربعين ثم مرض ملكهم أو حدث شىء فزادوا عشرة أيام فصار خمسين .

وفى ذكر فرض الصوم على الذين من قبلنا تسلية لنا ، واعتناء بشأننا ، وامتنان علينا حيث أنه تعالى شرع لنا ما يهذب نفوسنا ، ويؤهلها للآداب الروحانية والأسرار

(١) سورة البقرة – الآية (١٨٣).
(٢) سورة البقرة – الآية (١٨٣).

الربانية كما شرعه على الذين من قبلنا ، وفيه أيضا ما يجعلنا نجد ونجتهد لأجل أن لا نكون أقل منهم درجة لأننا إذا علمنا أن الصوم فرض على الذين من قبلنا سارعت نفوسنا إليه ، وأبت إلا أن تصوم لأجل أن لا تنحط درجة يوم القيامة عن السابقين ، كيف وهم رجال ونحن رجال ؟! ونزيد عليهم بأن رسولنا ﷺ خير رسول وبه كنا ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[1] . قال الشاعر « *أحمد محمد صالح السودانى* » :

لست أرضى بهوان أبدا ... إن نفس الحر للضيم أبيه

لا زكت نفسى ولا أورق عودى ... إن ركبت الذل للعيش مطيه

فأى هوان أعظم من هوان يوم القيامة ؟ وأى ذل أشنع من ذل المعصية ؟ وأى غيظ أشد من تقدم من هو دونك عليك ؟ فرض الصوم على الذين من قبلكم وهم أقل منكم فضلا فأجابوا ولربهم صاموا ، ومن لم يجب منهم كان من الكافرين ، وأنتم خير أمة أرسل إليكم خير رسول ، إياكم أن يحصل منكم ما لا يليق بكم ، فإن المخالفة من الشريف الفاضل أكبر من غيره ، وإن نبيكم ﷺ سيباهى بكم الأمم يوم القيامة كما علمتم ، والمباهاة ليست بكثرة العدد فقط ، وإنما هى بالكثرة والأعمال الصالحة ، لاسيما وأن مفطر رمضان – والعياذ بالله – لا يكون يوم القيامة مع الذين يشاهدون رسول الله ﷺ ويتفاخر بهم ويشربون من حوضه ، كيف يشربون الماء فى نهار رمضان من غير عذر ويشربون من حوض لا يشرب منه إلا من ذاق ظمأ الصيام ؟! أم كيف يتلذذون بأكل فواكه الجنة من تلذذوا بأكل الطعام فى نهار رمضان وإن فواكه الجنة أعدت للذين جوعوا نفوسهم بالصيام ، فيقال لهم ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾[2] ، أى فى أيام الصيام فربنا جل شأنه

(١) سورة آل عمران – الآية (١١٠).
(٢) سورة الحاقة – الآية (٢٤).

خبير عدل ، فلابد للعين التى تتلذذ بالنظر إلى ما حرم الله من يوم تذوق فيه ألم تلك اللذة ، وللضاحك على الخلق ساخرا بهم من يوم يذوق فيه ألم ضحكة .

﴿السابع : من المباحث السبعة للآية الكريمة﴾
﴿التقوى﴾

تقوى : **التاء** : إشارة إلى التوكل ، **والقاف** : إلى القناعة ، **والواو** : إلى الورع ، **والياء** : إلى اليقين ، أو **التاء** : إشارة إلى التوحيد ، **والقاف** : إلى القيام بحق الخالق والعبيد ، **والواو** : إلى الوجد والشهود ، **والياء** : إلى اليقظة لكل يوم يمضى ثم لا يعود . قلت :

تقوى الإله أن ترى سميعا	لقوله وعاملا مطيعا
مؤيدا لسنة المختار	وهاجرا مجالس الأوزار
بالجد فى الأعمال والسداد	فى القول والزهد مع الأوراد
وأن تكون قارئا للعلم	ومرشدا مؤيدا بالحلم

فالتقوى هى مطية كل خير يصل بها الإنسان إلى خير الدنيا والآخرة وسعادتيهما ، فمن لا تقوى عنده لا خير فيه ولا سعادة له . بها يصل العالم إلى معرفة أسرار العلم ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾[1] ، أى اعملوا بما علمتم يعلمكم ربكم أسرار العلم ويكشف لكم عن أسراره ، حتى تلوح لكم أنواره وتظهر عليكم آثاره .

وبالتقوى يحصل للإنسان المكروب الفرج والمخرج ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾[2] . سمعت من شيخى « *محمد السالوطى* » عليه الرحمة والرضوان حكاية ذكرها عندما قرأ حديث « **احفظ الله يحفظك** »[3] ، قال : وقع رجل تقى فى شدة وهى أن امرأة دعته إلى بيتها فلما وصل البيت غلقت الأبواب ودعته إلى نفسها ،

(١) سورة البقرة – الآية (٢٨٢).
(٢) سورة الطلاق – الآية (٢).
(٣) جزء من حديث رواه الترمذى وأحمد .

فأمرها بطعام ، فذهبت لتأتيه به ، فقام فتوضأ وصلى ركعتين ، وقال : اللهم هذه التقوى فأين المخرج ؟ فانفلق له الجدار ، فخرج منه فجعل الله له مخرجا بسبب تقواه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾[1] ، أى بأن يساعدهم وأن يعينهم وأن يكون لهم على مقتضى حالهم ، فالفقير يحتاج إلى قوت ، والمريض يحتاج إلى شفاء ، والخائف إلى أمن ، والضعيف إلى قوة ، والمظلوم إلى إنصاف ، والمغلوب إلى نصر ، والكسول إلى نشاط . فالحق سبحانه وتعالى يكون مع كل تقى على حسب ما يحتاجه التقى ويزيده من فضله ﴿ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ ﴾[2] .

وقد ذكر رسول الله ﷺ للتقوى موضعين ظاهرى وباطنى :

موضع التقوى الأول :

فى قوله ﷺ : « **اتق الله حيث ما كنت** » رواه الدارمى ، أى فى أى مكان كنت ، لأن الله تعالى معك حيثما كنت ﴿ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ ﴾[3] ، أى بعلمه ، وقدرته ، ولطفه ، وبطشه ، وعفوه ، ومغفرته ، ورحمته ، وعنايته ، واختياره ، وتدبيره ، وقوته ، وقهره ، وعظمته ، وكبريائه ، وحفظه ، وغيرته .

فإذا أردت أن تقول قولا أو تفعل فعلا فاعلم أن الله معك بعلمه ، فإياك أن يصدر منك ما لا يرضى به عنك ، وإياك أن لا تتقن العمل مع من يعلم بك وبعملك .

(١) سورة النحل – الآية (١٢٨).
(٢) سورة الشورى – الآية (٢٦).
(٣) سورة الحديد – الآية (٤).

وإذا استبعدت نفسك شيئا كحصول الفرج بعد الشدة أو الشفاء بعد المرض أو الغنى بعد الفقر أو الهداية بعد الغواية فاعلم أن الله معك بقدرته ، قادر على كل شىء خطر ببالك مما تستبعده نفسك ، فاتق الله فى ألا تطلبه من غيره ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] ، وغيره لا يقدر على شىء بل هو مقدور .

وإذا حدثتك نفسك بمعصية فاذكر لها أن الله معك بقدرته ، قادر على إنزال العذاب عليك الآن ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾[2] ، ومعك بلطفه فمهما نزل بك من كرب وشدة وعذاب فاعلم أن الله قد لطف بك ؛ لأنه ما من عذاب إلا وعند الله أشد منه ، فاتق الله عند الشدائد بشكرك له على لطفه بك ، ولا تكن ممن أنساه ألم الكرب معية اللطف فسخط وجحد وقال ما لا يحمد قائله ، قلت :

لله لطف بالعبيد	لدى الشدائد والكروب
فاشكر لربك دائما	سبحان علام الغيوب

وإذا أردت بطشا بأحد أو ظلما فاعلم أن الله معك ببطشه الشديد ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾[3] ، فاترك بطشك الضعيف خوف بطش ربك الشديد وإلا تكن من الهالكين ، فخف تأمن .

وقلت فى لاميتى :

اترك البطش بخلق الله لا	تنس بطش الله مولانا الأجل

(١) سورة البقرة – الآية (٢٠).
(٢) سورة الأنعام – الآية (٦٥).
(٣) سورة البروج – الآية (١٢).

وفى الحديث « **ويل لمن يغضب وينسى غضب ربه** » رواه الديلمى ، ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾[1] .

وإذا جاءك اليأس فلا تنس أن الله معك بعفوه ، وفى الحديث « **إن الله حيى كريم يستحى إذا رفع العبد إليه يديه أن يردهما صفرا خائبتين** » [2].

وإذا جاءك القنوط فاذكر أن الله معك برحمته ، وأن رحمته سبقت غضبه ، وفى الحديث القدسى : « إنى أنا الله لا إله إلا أنا سبقت رحمتى غضبى » ولولا ذلك لهلك العصاة والمذنبون ، فسبحان من سبقت رحمته غضبه فصبر على العصاة رجاء أن يتوبوا إلى ربهم فيفلحوا كإخوانهم المتقين ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[3] .

وإذا كثرت عليك الذنوب فاذكر مغفرة الله تعالى وأنه معك بمغفرته متى استغفرته أثابك وغفر لك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾[4] ، غير أنك لا تتكل على المغفرة وتهيم فى فعل الرذائل ، وإذا قيل لك ما هذا المنكر تقول : إن الله غفور رحيم . لا . هذه الجملة يقولها من تاب إلى الله ورجع عن المعاصى عندما يقول له الشيطان : أيها العاصى قد فعلت ذنوبا كثيرة لا تغفر ولا تنفعك معها توبة ، ارجع إلى ما كنت عليه من المعاصى حيث أنه لا فائدة فى توبتك أو قال له ذلك إنسان من أهل المعاصى فيرد عليهما بقوله : إن الله غفور رحيم ؛ لأنه الآن يستحق المغفرة والرحمة لأنهما للتائب التقى لا للفاجر الشقى .

---

(١) سورة الشورى – الآية (٣٧).
(٢) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه .
(٣) سورة النور – الآية (٣١).
(٤) سورة الزمر – الآية (٥٣).

وأما المنغمس فى المعاصى فحقه أن يقول : إن الله شديد العقاب ، لأن عمله يستحق عليه العذاب ، فإذا كان متلبسا بالمعاصى مستغفرا لله معها فهو كالمستهزىء بربه وفى الحديث : « **المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزىء بربه** » .

وقلت فى لاميتى :

اذكر الغفران لا تنس الذى	يغفر الذنب وللتوب قبل
لا تقل غفران ربى عندما	تفعل الذنب قبيح مبتذل
إنما هذا لمن جاء إلى	عفو ربى تائبا يرجو العمل

وإذا كنت تقيا فاذكر أن الله معك بعنايته وتوفيقه ورفقه ورأفته وخيره وبره وإحسانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾[1] .

قال الشاعر :

وإذا العناية لاحظتك عيونها	نم فالمخاوف كلهن أمان

وقلت فى تائيتى :

بتقواك يا هذا تكون مكرما	لدى الله ملحوظا بعين العناية

وإذا ترددت فى أمرين أو أمور فجاءك أمر غير مرادك فاعلم أن هذا باختيار الله فارض به ﴿ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ ﴾[2] .

وفى الحديث : « **اللهم خر لى واختر لى** » . فلا تسخط ولا تحزن ، وكن راضيا بحكم ربك واصبر عليه ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾[3] ، فإن لم تصبر وأردت غير ما

(١) سورة النحل – الآية (١٢٨).
(٢) سورة القصص – الآية (٦٨).
(٣) سورة الطور – الآية (٤٨).

حكم نسخ حكمك ، ولا يكون إلا ما حكم به المولى الجليل ، أما ترى كيف فعل الله تعالى مع نبيه يونس بن متى عليه السلام حينما خرج من بلد قومه يريد بلدا آخر فرده إلى قومه . قال تعالى : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾[1] . أى ظن أن الله تعالى لم يقدر عليه العودة إلى قومه وبعد رجوعه إليهم علم أن الله تعالى قد قدر رجوعه إليهم لإيمانهم به ، لأن الأنبياء عليهم السلام لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله ، وسفره كان باجتهاد منه لا بوحى من الله تعالى ، إذ للنبى أن يجتهد فيما يرى فيه المصلحة ويثاب على العمل باجتهاده كما يثاب على العمل بالوحى إذا وافق الوحى الاجتهاد ، وأما إذا لم يوافقه فيثاب عليه ثوابا دون ذلك .

وإذا أردت تدبير أمر من الأمور فاتق الله الذى معك بتدبيره ، والذى قدر لك رزقك ودبره لك قبل خلقك بخمسمائة ألف عام .

وفى الحديث : « **فرغ ربكم من هذا العالم** »[2] أى من تقديره .

قلت فى لاميتى :

اترك التدبير لله الذى ... دبر الأشيا قديما فى الأزل

ليس بالتدبير شىء زائد ... بقضاء كل شىء قد حصل

قال تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾[3] .

وإذا جاء الكسل عند الطاعات فاتق الله القوى الذى هو معك بقوته قادر على أن يقويك على فعلها فاسأله القوة .

(١) سورة الأنبياء – الآية (٨٧).
(٢) رواه الطبرانى بنحوه فى المعجم الكبير.
(٣) سورة السجدة – الآية (٥).

وفى الحديث : « **اللهم إنى ضعيف فقو فى رضاك ضعفى** » وحديث « **لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم** » رواه البخارى ، أى لا تحول عن معصية الله إلا بعصمة الله ، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله ، ولا يحول بينك وبين الشيطان والهوى إلا الله ، ولا يقويك على طاعة الله إلا الله . قال سيدى *أحمد الدردير* رضي الله عنه :

« قوى متين قو عزمى وهمتى »

وإذا حدثتك نفسك بقهر عبيده فاتق الله الذى معك بقهره وجبروته ، فإذا رأيت نفسك مقهورا لغيرك فاعلم أن ذلك مظهر لتجليات اسم ربك القهار إذ كل ما سواه مقهور له ولا قاهر له تعالى حتى إن الزوجة تقهر زوجها ، والولد يقهر أباه ، والعبد يقهر سيده ، والرعية تقهر أميرها ، والنهار يقهر الليل يأخذ جزءا منه ، والليل يقهر النهار كذلك وهكذا . والخليقة لا تقهر خالقها وهو يقهرها ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾[1] .

وإذا جاءك العلو والكبر فاذكر عظمة الله تعالى وكبرياءه ، واتق الله الذى يبغض المتكبر والمتعاظم ويحب المتذلل له تعالى .

قال سيدى *عمر ابن الفارض* رضى الله عنهما :

تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل ... ففى حبه يحلو التهتك والذل

وأراد بالتذلل التواضع والانخفاض ، كما قال :

تواضعت ذلا وانخفاضا لعزها ... فشرف قدرى فى هواها التواضع

وبالتهتك الإكثار من الصوم والعبادة والأوراد حتى يقال عليه إنه كالمجنون ، فإن ذلك فى سبيل الله يحلو ويمدح فاعله ، وفى غير سبيل الله لا يحسن ، لكن لابد أن

(١) سورة الأنعام – الآية (٦١).

يكون ذلك موافقا للشريعة الغراء إذ التصوف بدونها لا يسمى تصوفا ، والعبادة المخالفة لها لا تسمى عبادة .

وعلامة صاحب الحب الإلهى أنه كلما ازدادت محبته لله تعالى ظهرت عليه موافقة الكتاب والسنة ، والمبادرة إلى إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، والصوم ، وفعل الخيرات ، وترك المنكرات ؛ لأن المعصية والحب ضدان لا يجتمعان ، ومن ادعى اجتماعهما فقد كذب ، إذ رفيق المحبة الطاعة ، ورفيق البغض المعصية ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[1] .

قلت فى تائيتى :

علامة حب الله طاعة أمره	وللبغض عصيان لأهل الشقاوة
ومن يدع حب الإله ويعصه	فذلك كذاب رفيق الجهالة

وإذا وسوس لك الشيطان بالمخاوف المفزعة أو أوعدك إنسان بالمهالك فاتق الله الذى هو معك بحفظه يحفظك من كل شىء . قال ﷺ : « **احفظ الله يحفظك** » . مما من الله به على أننى تلقيت هذا الحديث بشرحه عن شيخى الشيخ *محمد السالوطى* بالمسجد الحسينى ، شرع يشرح فيه من بعد العصر إلى قرب المغرب ، وكان ذلك بشهر رمضان المبارك . ومن كلامه : إحفظ الله فى أوامره يحفظك فى دينك ، وفى جسمك ، وفى مالك ، وفى ذريتك ، وفى زوجتك ، وفى أهلك ، وفى حياتك ، وفى موتك ، وفى قبرك ، وفى بعثك ، وفى المحشر .

أقول : أى اذكر الله تعالى فى نفسك ، فإنه يذكرك فى نفسه كلما ذكرته ، ويستحيل أن يتسلط عليك شىء وأنت فى تلك الحالة التى يذكرك الله العظيم فيها ،

(١) سورة آل عمران – الآية (٣١).

ومن أهم ما يذكرك به فى تلك الحالة الحفظ ، فأبشر بحفظه ما دمت حافظا لذكره بقلبك قال تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾[1] . ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾[2] .

وإذا حدثتك نفسك بالسوء وبانتهاك الحرمات فاذكر الله تعالى ، واتق الله الذى معك بغيرته على انتهاك حرماته . قال ﷺ : « **لا أحد أغير من الله** » رواه البخارى ومسلم والترمذى ، فاحذر غيرة من لا يبالى بعبده المجرم فى أى واد هلك ؛ لأنك إذا أردت أن تعرف منزلتك عند الله فانظر إلى منزلة الله فى قلبك ، فإن كان الله عندك محترما معظما كنت عنده كذلك ، وإلا فأنت عنده كما هو عندك ودليلك عملك .

أصلح الأعمال لكى تكون لك ، وإن لم تصلحها كانت عليك ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾[3] ، كيف تحارب الله تعالى بما فيه دليل على وحدانيته وباهر قدرته من عظيم إحسانه عليك . أمرك بالطاعة وهداك إليها ثم خلقها فيك ثم نسبها إليك ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[4] . ومن عظيم إرشاده لك ورأفته بك نهاك عن المعصية وبين لك مضرتها ، ثم أنت بعد ذلك تفعلها ، ثم إذا تبت إليه قبلك وغفرها ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾[5] ، ما أغفل من لم يشاهد فى فعله آية ربه الذى له فى كل شىء آية تنطق بوحدانيته وتدل على عظمته وبديع حكمته .

(١) سورة البقرة – الآية (١٥٢).
(٢) سورة الأنبياء – الآية (٤٢).
(٣) سورة فصلت – الآية (٤٦).
(٤) سورة الصافات – الآية (٩٦).
(٥) سورة غافر – الآية (٣).

وما أحسن قول *أبى العتاهية* :

أيا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد ؟ !

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

ولله فى كل تحريكة ... وتسكينة أبدا شاهد

وقلت فى تائيتى :

آيات ربك فى الفعال جميعها ... تنبيك حقا عن عظيم القدرة

فى كل شىء آية تهدى إلى ... أن الإله له بديع الحكمة

فانظر أخى إلى السماء فكم بها ... من آية للناظرين بفكرة

والأرض والآفاق والسحب التى ... بين السماء فيا لها من آية

موضع التقوى الثانى :

فى قوله ﷺ : « **التقوى ها هنا** » [١] ، وأشار إلى صدره الشريف ثلاثا .

فالموضع الأول وهو « **حيثما كنت** » موضع إبرازها ، وهذا مقرها وموضع كمونها ؛ لأن القلب كالسلطان والتقوى هى قانونه العادل ، والجوارح رعيته ، فإذا كان الأمر كذلك فلابد من ظهور آثار هذا القانون فى رعية السلطان ، وأيضا مثل القلب كالبيت المظلم كثير الأركان وأنواره التقوى ، وكلما زاد العبد من التقوى زادت فى قلبه الأنوار وبها يكون له سلطان على شيطانه ونفسه ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا ﴾ [٢]، وبه يهتدى إلى عمل أهل الخير والصلاح ، وإلى نور الله السارى فى سائر الأسماء والصفات ﴿ يَهۡدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [٣] .

فإذا علمت أيها المؤمن أن قلبك سلطان جوارحك لم تغفل عنه وعن إحضار قانون عادل له . أتريد أن يكون ظالما لرعيته وقد علمت أن الظلم مرتعه وخيم قال ﷺ : « **الظلم ظلمات يوم القيامة** » رواه مسلم والدارمى .

وقلت فى ذلك شعرا أثبته فى ديوانى :

يا ظالم الخلق هلا	رجعت عن غى ظلمك
الموت يأتى بيوم	تكون فيه بقبرك
قد كنت فينا ظلوما	ماذا تقول لربك
وفى ظلام تكون	يا ظالما يوم حشرك
قد كنت فظا غليظا	تسب أبناء جنسك

(١) رواه مسلم .
(٢) سورة الأنفال – الآية (٢٩).
(٣) سورة النور – الآية (٣٥).

قد كنت عبدا فقيرا — تئن من مر عيشك
فصرت فينا غنيا — تتيه فى وسع جيبك
تقول إنى وإنى — والناس تدرى بفقرك
نزلت للأرض جسما — من غير ثوب لضعفك
فإن رحلت فلبسك — ثوب وحيد كغيرك
انظر إلينا فإنا — نلقى التراب لدفنك

فبادر إلى القرآن العظيم الذى ما فرط الله فيه من شىء ، فإنك إن قرأته وعملت بما فيه عشت آمنا ومت آمنا ، ما ترك الله فيه طريق خير إلا وحضك على فعله ، ولا طريق شر إلا وحذرك منه .

وعليك بسنة سيدنا محمد رسول الله ﷺ فإنها نعمت الطريقة الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة ، فإنه ﷺ كان نعم المعلم والحكيم والمرشد الفهم والشفيق الحنون ، يفزع لفزع أمته ، ويحزن لحزنها ، ويطمئن لاطمئنانها ، ويرضى لرضائها ، ويفرح لفرحها ، فلذلك سد عنها باب الفزع والحزن ، وأتى لها بالإحسان الذى جزاؤه الحسنى وزيادة ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[1] ، والذى به تكون الأمة آمنة مسرورة يوم القيامة ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾[2] ، وفتح لها باب الفرح الباقى الذى لا يزول والذى هو خير من الدنيا وما فيها ، فرح مبايعته ﷺ ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[3] ، وفتح لها باب الاطمئنان القلبى الذى هو حياة الروح وسرها ، ونور القلب ، وقائد العقل إلى فكر مع تؤدة

(١) سورة يونس – الآية (٢٦).
(٢) سورة الأنبياء – الآية (١٠٣).
(٣) سورة يونس – الآية (٥٨).

وسكينة ، وذلك هو بركة ذكر الله الأكبر ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[1] ، وفتح لها باب الرضا ، وعلمها كيف ترضى بقضاء الله وقدره فرضيت أمة سيدنا محمد ﷺ صاحب الجاه العظيم بقضاء الله وقدره حسبما علمها نبيها ﷺ ، فنالت من الله تعالى أن قال فى شأن رجالها ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾[2] ، رضوا بقضاء الله تعالى وصبروا على أحكامه فنالوا من الله تعالى الرضا . قلت فى تائيتى بفضل ربى :

رضينا بحكم الله فينا فإنه ... عليم بنا يقضى بحق وحكمة

وكل الذى يرضى بحكم إلهه ... ينال من الرضوان أعظم روضة

ويلقى عليه الله فيها رضاءه ... بدار خلود فى شهود ونعمة

فكن واثقا بالله وارض بحكمه ... ولا تلتفت يوما لدار القطيعة

فإذا ما أحضرت لسلطان جوارحك أعنى قلبك هذا القانون العادل ، وهما الكتاب والسنة ، صرت منعما فى حياتك قبل موتك ، معافى فى جسمك ومالك وذريتك ، وعشت عيشة من يكون تحت إمارة سلطان عادل لا يكلفه مالا يطيق ، ولا يلقى به فيما يهلكه ، ولا يغرى به السفهاء ، ولا يظلمه من حقه شيئا . وأما الفاسق فإنه يكون كمرؤوس لحاكم ظالم جبار ، يأخذ ماله ظلما ، ويرسله إلى المهالك المردية ، ويجور عليه جور السباع الضارية ، فتراه فى الدنيا معذبا بأشد العذاب وهو الحرمان من عبادة ربه التى هى قرة كل عين طيبة تقية .

فإذا علمت ذلك فهمت من قوله ﷺ « **التقوى ها هنا** » معنى عجيبا وهو أن قانون تدبير المملكة لا يكون إلا عند سلطانها ، لأنه قوى الإرادة فى تنفيذه ،

(١) سورة الرعد – الآية (٢٨).
(٢) سورة المائدة – الآية (١١٩).

مسموع الدعوة ، مطاع الأمر ، لا تأخذه لومة لائم فى إصدار مناشيره ولوائحه . فتنبه أيها المؤمن وجل بفكرك فى حدائق آى الذكر الحكيم ، وأحاديث النبى الكريم ، تر فيهما من العلوم والأسرار ما يكفيك عن آراء الفلاسفة وكتابة الكتاب ، ففيها ما لا ينقضى حتى الزمان ينقضى .

وعلى تفنن مادحيه بوصفه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

قلت فى حكمى بفضل ربى :

متع روحك قبل الممات ❁ واغتنم درر المعانى قبل الفوات ❁ واعلم أنك إذا مت ينقطع عملك ❁ ويخيب أملك ❁ فلا تكن كمن عاش فيها بائسا ❁ وخرج منها مفلسا ❁ إياك واليأس والأسى ❁ أو أن تقعد عن العمل وتقول فعسى ❁ فلم يقعد أبو بكر ولا عمر ❁ بل قاما لله بكل ما أمر ❁ فسدد وقارب ❁ وحاذر وحاسب ❁ ولا تلتفت إلى اللذات وإلى كل فعل لاه ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[1] .

(١) سورة النحل – الآية (١٢٧).

﴿فائدة﴾

أقول وأنا العبد الفقير *صالح بن محمد بن صالح الجعفرى الحسينى* : قد رأيت رسول الله ﷺ فى النوم بروضته الشريفة فسلمت عليه وتلوت الصلاة العظيمية المنسوبة للشيخ العالم المحدث السيد *أحمد بن إدريس* رضي الله عنه ، فقلت له : يا رسول الله أصلى عليك بهذه الصيغة ؟ فقال ﷺ : « **بها وبغيرها** » فاعتبرت هذه إجازة لى منه ﷺ . قد أجزت بها كل من رآها من المؤمنين كما أجازنى رسول الله ﷺ ، وإنها عندى من أعظم الإجازات ، وكما أجازنى بها يقظة شيخى العارف بالله السيد *محمد* عن والده السيد *عبد العالى* عن والده السيد *أحمد بن إدريس* رضي الله عنهم ، وهى تسمى صيغة الفتوح عند السادة الميرغنية والسادة السنوسية والسادة الرشيدية ، وقد افتتح بها كتاب صلواته سيدى *محمد عثمان الميرغنى* رضي الله عنه وحث على قراءتها ، وقيل المواظبة على قراءتها تورث التمسك بالسنة النبوية والقرب من صاحب الرسالة ﷺ وهى :

« اللهم إنى أسألك بنور وجه الله العظيم ❁ الذى ملأ أركان عرش الله العظيم ❁ وقامت به عوالم الله العظيم ❁ أن تصلى على مولانا محمد ذى القدر العظيم ❁ وعلى آل نبى الله العظيم ❁ بقدر عظمة ذات الله العظيم ❁ فى كل لمحة ونفس عدد ما فى علم الله العظيم ❁ صلاة دائمة بدوام الله العظيم ❁ تعظيما لحقك يا مولانا يا محمد يا ذا الخلق العظيم ❁ وسلم عليه وعلى آله مثل ذلك ❁ واجمع بينى وبينه كما جمعت بين الروح والنفس ❁ ظاهرا وباطنا ❁ يقظة ومناما ❁ واجعله يا رب روحا لذاتى من جميع الوجوه ❁ فى الدنيا قبل الآخرة يا عظيم »

﴿من فقه السادة المالكية فى أحكام الصيام﴾

تعريفه وأركانه وشروطه :

الصوم : هو الإمساك عن شهوتى البطن والفرج وما يقوم مقامهما مخالفة للهوى فى طاعة المولى فى جميع أجزاء النهار بنية قبل الفجر أو معه إن أمكن فيما عدا زمن الحيض والنفاس وأيام الأعياد .

وله ركنان : النية وشرطها الليل قبل الفجر أو مع طلوعه ، والكف عن مفطر من طلوع الفجر للغروب .

وشروط وجوبه اثنان : البلوغ والقدرة على الصوم .

وشروط صحته اثنان : الإسلام والزمن القابل للصوم .

وشروط وجوبه وصحته ثلاثة : العقل . ودخول شهر رمضان . والنقاء من الحيض والنفاس .

بم يثبت الصوم ؟

وصيام رمضان واجب على الأعيان ، ويتحقق بأحد أمور ثلاثة : إما بكمال شعبان ثلاثين يوما أو برؤية عدلين للهلال ، أو جماعة مستفيضة ، ولا يثبت بقول منجم ولو وقع فى القلب صدقه ، لأن الشرع أناط الصوم والفطر والحج برؤية الهلال لا بوجوده ، وحيث ثبت الشهر قبل الفجر وجب الصوم ، وإن ثبت بعد الفجر وجب الإمساك ويقضى ذلك اليوم .

متى يجب تبييت النية ؟

والنية قبل ثبوت الشهر باطلة ، وكفت نية واحدة لكل صوم يجب تتابعه كرمضان وكفارته وكفارة القتل والظهار والنذر المتتابع كمن نذر صوم شهر بعينه أو عشرة أيام متتابعة ، ويستحب التبييت فيه كل ليلة ، وأما الصوم المتتابع من غير نذر وصوم كل خميس واثنين مثلا فلابد فيه من التبييت كل ليلة .

حكم من أفطر فى نهار رمضان :

ومن أفطر فى نهار رمضان ناسيا فعليه القضاء فقط ويمسك ، ومن أفطر متعمدا من غير تأويل قريب ولا جهل فعليه القضاء والكفارة ، والمراد بالتأويل هنا الظن : أى ظن إباحة الفطر ، وقريبه : ما استند إلى أمر محقق موجود ، وبعيده : ما استند إلى أمر موهوم غير محقق ، مثال القريب من أفطر ناسيا فظن أنه لا يجب عليه الإمساك لفساد صومه فأفطر ، ومن قدم من سفره قبل الفجر فظن إباحة فطره صبيحة تلك الليلة فأفطر ، أو سافر دون مسافة القصر فظن إباحة الفطر ، أو أصابته جنابة ليلا فأصبح جنبا ولم يغتسل إلا بعد الفجر كذلك ، أو احتجم نهارا كذلك ، فهذا كله فيه القضاء فقط ، لأن الكفارة لانتهاك حرمة الشهر ولا انتهاك من هؤلاء ، ومثال التأويل البعيد من انفرد برؤية هلال رمضان ولم تقبل شهادته عند الحاكم فظن إباحة الفطر فأفطر ، أو من اعتادته الحمى أو الحيض فظن أنها تقع له فى ذلك اليوم فعجل الفطر قبل الحصول ، أو اغتاب أحدا فأفطر ، فهذا كله فيه القضاء والكفارة .

أنواع الكفارة :

واعلم أن الكفارة تكون بأحد ثلاثة أنواع على التخيير : إما إطعام ستين مسكينا كل واحد مد بمده ﷺ وهو الأفضل ، أو صيام شهرين متتابعين . فإن أفطر فى يوم

عمدا بطل جميع ما صامه واستأنفه ، أو عتق رقبة مؤمنة كاملة ، ويكفر السيد بالإطعام عن أمته إن وطئها ولو أطاعته ، وكذلك يكفر الرجل عن زوجته أو امرأة زنا بها إن أكرهها لنفسه .

حكم الفطر فى صوم النفل :

وقضى فى صوم النفل بالفطر العمد الحرام ولا يجب فيه الإمساك على المعتمد ، وأما إن أفطر فيه ناسيا أو مكرها أو غلبة أو عمدا ليس بحرام كمرض أو حيض أو أمر شيخه أو أحد أبويه فلا يجب عليه القضاء ويجب عليه الإمساك .

وحرم على الصائم المتطوع الفطر لعزيمة يعزمها عليه شخص وإن حلف عليه بالطلاق الثلاث حنث .

وكره صيام يوم الشك ليحتاط به أنه من رمضان ، ويجوز صيامه للتطوع أو للنذر أو للقضاء .

أشياء لا تفطر الصائم :

وليس على من أفطر فى قضاء رمضان متعمدا قضاء آخر على الأرجح ، ولا قضاء بخروج قىء غلبة إذا لم يزدرد منه شيئا ، ولا بما سبق إلى الحلق من غالب ذباب أو بعوض أو غالب غبار طريق أو دخان حطب ولو تعمد استنشاقه أو غالب دقيق نحو جبس لصانعه أو غبار كيل لنحو طحان ومغربل وناخل ، والصانع : من يتولى أمور نفسه من هذه الأشياء ، أو من حفر أرض لحاجة كقبر أو نقل تراب لغرض .

وكذلك لا قضاء فى حقنة من إحليل ولو بمانع ، ولا فى دهن جائفة وهى الجرح فى البطن أو الجنب الواصل للجوف ويوضع عليه الدهن للدواء وهو لا يصل لمحل الأكل والشرب ، ولا فى نزع فرج أو مأكول أو مشروب فى مبدأ طلوع الفجر .

ولا شيء على من اكتحل ليلا أو وضع شيئا فى أذنه أو أنفه أو دهن رأسه ليلا فهبط .

ولا شيء على من نكت [1] أذنه بعود ونحوه ولو خرج خرؤها ، ولا فى الريق المجتمع فى الفم ، ولا فى بلع ما بين الأسنان .

ولا يفطر من احتلم ولا من احتجم أو حجم غيره وتكره الحجامة للمريض خيفة أن يصيبه إغماء أو ضعف عن الصوم .

ويجوز للصائم السواك فى جميع النهار والمراد أنه مستحب عند المقتضى الشرعى كالوضوء ، وتجوز المضمضة للعطش والحر ، وكذلك الإصباح بالجنابة .

من يجوز لهم الفطر فى رمضان :

ويجوز الفطر فى السفر برمضان فقط بأربعة شروط : أن يكون فى سفر قصر ، وأن يكون مباحا ، وأن يشرع فيه قبل الفجر إذا كان أول يوم ، وأن يبيت الفطر فى السفر .

ويجوز الفطر للمريض إن خاف زيادته أو تأخر البرء ، ويجب إن خاف هلاكا أو شديد ضرر ، ومن اتصل مرضه أو سفره برمضان الثانى فلا إطعام عليه .

والحامل إن خافت على ما فى بطنها أو على نفسها أفطرت ولا تطعم على المعتمد ، وكذلك المرضع إن خافت على ولدها مرضا أو زيادته ولم تجد من تستأجره له أو وجدت ولم يقبل الولد غيرها أفطرت وأطعمت وجوبا ، وكذلك الشيخ الهرم الذى لا يستطيع الصوم من الكبر يطعم إذا أفطر قيل : وجوبا ، وقيل : استحبابا .

(١) فى القاموس المحيط : نكت : أن تضرب فى الأرض بقضيب فيؤثر فيها . اهـ فهو تشبيه.

ومن فرط فى قضاء رمضان حتى دخل عليه رمضان آخر فإنه يطعم وجوبا ويقضى ، ولا يتكرر الإطعام بتكرر الأمثال . والإطعام فى ذلك كله بمده ﷺ من غالب قوت البلد عن كل يوم يقضيه .

قال *الإمام مالك* رضي الله عنه : ولا يجزئه أن يطعم أمدادا كثيرة لمسكين واحد ولكن لكل مسكين مد .

ما يكره فعله للصائم :

ويكره للصائم ذوق شىء له طعم كالملح والخل والعسل لينظر حاله ولو لصانعه مخافة أن يسبق شىء منه لحلقه ، فإن مجه ولم يصل إلى حلقه منه شىء فلا شىء عليه.

وكذلك يكره مضغ نحو لبان وتمر لطفل ، ونذر صوم يوم مكرر ككل خميس واثنين .

ومقدمات الجماع مكروهة للصائم كالقبلة والجسة والنظر المستدام والفكر والملاعبة إن علمت السلامة من ذلك بعدم الإنزال وإلا حرم ، ولكنه إن أمذى من ذلك فعليه القضاء فقط ، وإن أمنى فعليه القضاء والكفارة .

وكره التطيب نهارا ، وشمه ، لأنه محرك لشهوة الفرج .

من مندوبات الصوم :

وندب تعجيل الفطر ، وكونه على رطبات فتمرات وترا وإلا حسا حسوات من ماء .

وندب السحور ، وتأخيره ، وتعجيل القضاء لمن عليه ، وتتابعه ، وكف لسانه عن الهذيان والفحش من القول غير المحرم ، وأما المحرم فيجب الكف عنه فى الفطر ويتأكد فى الصوم .

وندب صوم يوم عرفة لغير الحاج ، وعاشوراء ، وتاسوعاء ، والمحرم ، ورجب ، وشعبان ، وثلاثة أيام من كل شهر ، ويوم النصف من شعبان لمن أراد الاقتصار . ومن قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه .

وإلى هنا قد تم الكتاب المسمى بأسرار الصيام . ولله الحمد فى البدء والختام .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله فى كل لمحة ونفس

عدد ما وسعه علم الله

﴿فهرس الكتاب﴾

~